

ثم نولد من جديد

ياسمين الخولي

ثم نولد من جديد
المؤلف: ياسمين الخولي

تدقيق لغوي: لخضر بن الزهرة
تنسيق وإخراج داخلي: لخضر بن الزهرة
تصميم الغلاف: إسلام أحمد
رقم الإيداع: 2019 / 23866
الترقيم الدولي: 2-7-85544-978/977
الطبعة الأولى: 2019
رئيس مجلس الإدارة: أ. د. محمود محمد السعيد
المدير العام: هالة البشبيشي



بريد إلكتروني: info@alhalapublishing.com

تليفون : 01110161117

العنوان: 26 ش 261 المعادي الجديدة

صفحة الفيسبوك: مركز الهالة الثقافي

<https://www.facebook.com/alhalapublishing>

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للدار، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل من الأشكال، أو وسيلة من وسائل نقل المعلومات، ولا يجوز تداوله إلكترونياً نسخاً أو تسجيلاً أو تخزيناً، دون إذن خطي من الدار.

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي دار النشر.

ثُمَّ نَوْلَدُ مِنْ جَدِيدٍ

يَاسْمِينُ الْخَوْلِي

إهداء

إلى كل من صدقَ لسان حاله وأخرسه الفقدُ..

«كتابة الرسائل، معناها أن يتجرد المرء أمام الأشباح،
وهو ما تنتظره تلك الأشباح في شراهة، ولا تبلغ القبلات
المكتوبة غايتها، ذلك أن الأشباح تشرّبها في الطريق»
-فرانتز كافكا-

«لرسالة سحرٌ أبيض لا أسود.. يتحول فيها المرء إلى
رقعة ملساء نقية اسمها الورقة وتخط الروح فوقها رموز
الصدق.. الرسالة جموح القلب إلى المستحيل، وشبهية
الأشواق إلى تقمص اللغة حتى البقاء..»
-غادة السمان-

محطات

| | |
|----------|-----------------------------|
| 9..... | تقديم |
| 11 | 1 شغفُ الحُلم |
| 55 | 2 سحر التَّجَسُّد |
| 81 | 3 الفَقْدُ / فصول التعافي |
| 83..... | إنكار..... |
| 101..... | غَضَب..... |
| 117..... | مساومة..... |
| 133..... | اكتئاب..... |
| 165..... | تقبُّل..... |

تقديم

(1)

عزيزي البعيد جداً..

تحيةً طيبةً وبعد،

أكتبُ إليك رسائلَ تحمل في أحشائها سيرةً ذاتيةً.. أو مذكراتٍ ربما. حلمٌ طويلٌ يتخلله بعض الكوابيس.. أو كابوسٌ مريّرٌ هُدته بعض الأحلام الوردية. خواطرٌ طويلة.. أقاصيص حياتية.. أوهاّمٌ وخيالات.. أو مجرد كلماتٍ عابرة. كم هي مُحيرة تلك الحياة رغم شدة وضوحها، لا ننفكُ أن نُنقب فيها عن المعنى، بينما تنتظر منّا ما نمدها به من بيان! أخبرني يا عزيزي، ماذا يحدث لكل من لا يجد من ينتبه لوجوده! أيعُد من الأحياء يا تُرى؟ أم تصنّفه وحدته كميّةٍ مُقيم.. أو ربما كلا شيء على الإطلاق!؟

آلاف الألوان نغرق حتمًا في بحر تخبطها وعدم تناسقها البادي.. لنكتشف في النهاية أننا نحب الحياة، نحيا وإن ادعينا غير ذلك، نتمسك بها ونحارب من أجلها حتى أشد أنواع الألم وأقبح أوجه الظلم وأعتى أصناف العذاب..

نُخيطُ جراحنا دون أن نضمّدها حبًا بالحياة، ونحفر غيرها في نفوسنا أيضًا حبًا بالحياة! وما الحياة سوى ذلك الذي يبقى بعد أن يتلاشى من الوجود كل شيء. لا يربكنا عدم حصولنا على الإجابات قدر ما يربكنا كثرة عددها.. فما يحزننا ليست دوائر التيه المغلقة وإنما جلٌّ ما يحزننا أننا مجبولون على الاختيار!

لا أجد من الكلمات ما يكفي لأن أصف لك حالي يا عزيزي ردًا على استفهامك الذي لم تطرحه، فإني بحاجةٍ لأن أكتب لك آلاف الرسائل كي أفعل، بعد أن أقرأ ما دُفِنَ في نفسي من آلاف المجلدات.. ربما خلّصتُ

منها بحرفٍ أبدأ به وصفي أو ربما أطمع باكتشاف كلمة كاملة تلخص كل شيء يملأني لأنتهي من ذلك الهُزال والجذب الصريح! فوصفي لتفاصيل حالي لك أنت تحديدًا دونًا عن كل البشر لهو مهزلة مأساوية، أو مأساة مُضحكة! فلکم يُخزنا أن نصف أحوالنا لمرآتنا! ولكم هو مُحزنٌ ألا تدرك مرآتنا شيئاً من أمرنا! ولكم يخذلنا أن تكذب المرآيا حين نعول عليها لتكون شاهدنا الأخير!

بينما تظل الذكريات عالقةً في عقولنا.. تبقى الأمنيات عالقةً في نفوسنا، فما لا يقع أشدُّ تشبُّهًا بنفوسنا مما قد وقع، وما قد حدث لهو أقلُّ أثرًا مما تمنيناه ولم يجد له مكانًا ليتجسد بواقعنا الممتد بين قوسي البداية والنهاية..

عزيزي البعيد جدًا؛

أكتب لك رسائلي، وأخطئُ إليك خواطري، ألربما قرأتها يومًا إذا ما تعثرتُ خُطاكُ بأطراف الرحيل!

مودتي..

وكلُّ السلام

1 || شغفُ الحُلُم

نعم.. أتذكره

مع كل شهيق، مع كل طرفة عين..

في لحظات الصمت الطويلة..

وفي تلك الوقفات بين الجُمَل.. البطيئة الثقيلة..

أتذكره!

عندما تجولُ عيناى بين سطور الكتاب..

وإذا ما تراقصت أناملى بين حروفٍ تختارها الكلمات..

وحين ترتعش روحى على حواف الأصابع البيضاء العاجية..

أو تلك السوداء النرجسية..

أتذكره!

حين أُغلقُ عيني لأنعزل ونفسى..

وحين تنتقلُ نظراتي في مللٍ بين الموجودات،

تشتاق للقاء اختلافٍ عن أمسى..

رغم أنني لم أعرف لاسمه حروفاً تُرتب همسى..

أو تفاصيلٍ توافق اضطرابات نفسى..

أو كم من حبيبات سكرٍ تحتضنها حبيبات قهوته!

لا أعرف.. كيف يرسم بطلته..

كيف يكون مذاق اسمى على شفثيه..

أو انعكاس صورتي في ظلّمة مُقلّتيه..

لا أعرف عن عينيه سوى حكمته..

وعن صوته لم أميز سوى زفرته..

وعن نقاط ضعفه لم الحظ سوى قوته..
لا أعرف كيف تكون ملامح حيرته.. أو حنين نظرتة..
كيف كذبُ عينيه!
كيف تبدو الدموع لديه!
وإني حقًا، لا أريد أن أعرف مَنْ يكون
أو كيف يكون السبيل إليه..

(2)

عزيزي القاضي الداني..

تحيةً طيبةً وبعد،

أوقن أنك في مكانٍ ما من هذا العالم، كما أوقن أنك تُدرك حجم النور الذي ينمو بداخلنا نحن البشر منذ أن زُرعت بذرة الحب في قلوبنا مع بدء الخليقة، وأعلم أنك تُدرك حجم البهجة التي تُشع من هذا الضياء فتصل إلى أوتار قلوب من هم بالجوار لتنتقل بأثر الفراشة إلى أولئك القاطنين خلف البحار!

يغوص البعض في أعماقنا لا يتوقفون عن النهل من وارفة قلوبنا التي أبدًا لا تنضب ولا تفضي إلى خواء، بل ربما يزينها المزيد والمزيد من الامتلاء! ويقفُ البعض عند حدود عتبات قلوبنا يتأملون الوهج المُشع من سويدائه في صمتٍ مهيب من دون اكتفاء!

البعض يخشى نورك.. فيحتمي منه في ظلك! والبعض يتوق إلى تمزيق سرائر ذاتك بقلوبهم العمياء عليهم يصلون إلى مصدر ذلك النور بك..

لا أبه لتصاريف البشر، لا أبه لها يا عزيزي، فبعض البشر لا يكتفون أبدًا من تعذيب أنفسهم، ولا يزهدون الغوص بأعماق ذواتنا يُنقبون عن ذواتهم الضائعة مُحطمين فينا كل ما صادفهم بالطريق!

هم ما كثون بثباتٍ على أطراف سبيلهم يتوسطون مفترق الطرق في انتظار أن يأتيهم منتهاه! يقفون على حافة منحدر الحياة، يحتضنهم خوفهم وتُكبّلهم أكاذيبهم.. أنا لا أبالي بهم، ولكن يحزني ضعفهم.

تغريني الهموم، تتبعني وتحاصرني من كل اتجاه.. ولكني لا أحملها معي! فإن الهموم لا تُحمل يا عزيزي، وإنك إذا ما فعلت، اتكأت الهموم على كتفك تستنفذ منك قوتك، تغريها محاولات تحملك، يستثيرها

إصرارك على رفعها ويشعلها اهتمامك بها، فتصيبك بالجنون!
لا تحمل الهموم، فإنها أثقل من أن تُحْمَل، وأتفه من أن تعانق
مسؤوليتها تُقيد بها عنقك الحر.

هي قزمٌ ضعيف في حضرة تجاهلك، وعملاق عظيمٌ في أوج اهتمامك.
هي ظلالك الممتدة أمام عينيك حين تدير ظهرك للنور، وهي الضباب
القابع أمام خواطرك يعيقها عن الاسترسال.

لا تحمل الهموم.. اتركها حيث وجدتها بعد أن تراقصها رقصتها
الأخيرة، أسمعت عن رقصة الخلاص؟

هي رقصةٌ تتأرجح خطواتها على ألحان نبضات قلبٍ مفعمٍ بالحب.
فالحب يا عزيزي يقتل الهموم، يقتلها.. ثم ينجوا بفعلته.

تعلم جيدًا ذلك الخدر اللذيذ، ذلك الذي يسري في النفس حين تنعم
في حب كل الأشياء وكل المخلوقات.. ولكن هل تشعر بامتداد روحك البادي
في محيا السماء.. ذاك الذي يصيب روح كل من اقترب منك ينشد ارتواء!
هل تشعر بحجم ما تنشره روحك في ذلك الفضاء!

هل تدرك كم أنك استثناء!

أيها العزيز البعيد..

(3)

عزيزي القاصي الداني..

تحيةً طيبةً وبعد،

إن هذا العالم مختلف تمامًا عما يبدو عليه! معقدٌ هو بكل تفاصيله، معقدٌ حد الحيرة! حد التخبط، بل حد الوجد. ربما لأننا نُصرُّ على تصديق آثاره، وتأويل أخباره، وتفسير أسرارهِ! كأن لا نرى من الألوان إلا سبعةً، أو أن نصنع من الظلال وهمًا، أو أن نرى السراب ماء!

كأن يوهمنا البحر بزرقته، ويخدعنا السحاب ببياض سريرته. يحتال علينا البدر بنورٍ لا يملك منه شيئًا يُذكر! ويضللنا هلاله بنقصٍ في استدارته! تهدينا النجوم بنورٍ.. هو دليل موتها! توهمنا شمس الشتاء بحنوٍ هو أبعد ما يكون عن جحيم لهيها! تراوغنا الأرض الكروية السابحة في الفضاء بثباتها واستطرداد طريقها، تبهجننا بنباتٍ يحيا على أشلاء جثثٍ اجتثت دموع قلوبنا! يخدعنا كل شيء حولنا يا عزيزي! كل شيء! يخدعنا البشر، وتخدعنا أعيننا، وأذاننا وألسنتنا. تخدعنا حواسنا، وتخدعنا عقولنا بل وتخدعنا أنفسنا وذواتنا! فلماذا نُصرُّ على التواصل بلغات اللسان، وألا ننصت لشيء سوى ما اهتز كاهترزاز أوتار الكمان!

أوتدري يا عزيزي كم من ألوانٍ لا تراها إلا أرواحنا! أوهل تدري كم من لغاتٍ افتقدنا وقعها على أذان قلوبنا!

أوتدرك كم من أصواتٍ قتلها الخذلان وأنهكها الهوان.. وكم يسقنا الخوف من حرمان وكم يقهرنا الكتمان!

عجبتُ لهذا العالم بتقلباته التي لا نهاية لها، بتناقضاته اللاذعة، بدموعه الساخرة وابتساماته المرعبة الموجهة..

عجيبٌ بصوره والتي رُغم شدة وضوحها.. ما زالت بعيني مهتزّةً
شاحبة!

لا أدري إلى أي وادٍ قد تستقر حيرتي، وفي أي عيونٍ قد تَبَيّتُ لهفتي!
لا أدركُ حقيقةً سوى النهاية.. ولا أدركُ صوتَ صدقي سوى أصداء
روحٍ تُدركُ أبعاد الحكاية..

الصادق الوحيد.. في هذا العالم المفتون!

(4)

عزيزي القاصي الداني..

تحيةً طيبةً وبعد،

كم أكره الزحام يا عزيزي، أكرهه حد الاختناق، فإني أتلاشى فيه
تمامًا ككلماتٍ تخلَّت عنها حروفها بعد أن سقطت عنها النقاط وسُلبت
منها الانحناءات.. ومادت بها المعاني.

وقد اعتدتُ منذ الأزل أن أكون وحدي، ما من أحدٍ يزاحمني في موطنٍ
قديمي، فكيف لي أن أبقى وقد زاحمتني أرواح آخرين على موطنٍ روحي حتى
ما بقي لها فيه من مستقر!

لطالما اكتفت نفسي بالانسحاب.. لطالما تنازلتُ عن مكانها الدافئ
لآخرين ألربما كانوا أكثر حاجةً مِنِّي إليه! ألربما أنهكتهم أعاصير الفراغ
وتمادى صقيع الوحدة في تعذيبهم..

لطالما غادرتُ الساحات المكتظة في هدوءٍ دون أن يلحظ أحدهم
انسحابي، هدوءٌ بالغٌ لا تصحبه جلبةٌ ولا ترافقه كلمات، انسحابٌ لا
يستهلّه وعيدٌ ولا يذيله وداع..

أغادر؛ تاركةً كل ما هو ورائي ربما بأفضل مما كان، لا أحمل معي
سوى ذكريات.. تجول بي فأمنحها الحياة، وأجول بها فتمنحني الوطن..
ربما لذلك لم يتمسك بي يومًا أيًّا ممن تمنيت أن يفعل.

أظنني أقوى من أن أتنافس على مكانٍ لا يكتفي بروحي كي يمتلئ..
وأضعف من أن أقاتل في الزحام، أضعف من أن أتخلى عما امتلأت به
نفسي من سلام.

يقولون إنه يتوجب على المرء انتقاء ما يخوضه من معارك، فما
جدوى الانتصار في معركةٍ قد كنتُ فيها مجرد عابرٍ سبيلٍ منعه كبريائه عن

السؤال..

ما جدوى الصراع يا عزيزي.. على أرض المُحال!

(5)

عزيزي القاضي الداني..

تحيةً طيبةً وبعد،

أدركتُ أنني تمامًا كالأطفال.. أعشقُ اكتشاف الأشياء، أعشق نشوة تلك المفاجأة المبهجة حين أرى ما لم يره غيري وربما ما لم يدركه أحدٌ بعد! حين ترى الأشياء وتسمعها وتدرِكها بروحك لا بعقلك!

لكم يكون حقيقياً ذلك الذي يُكتشف.. حقيقي جداً، فهو ليس بظنٍ أو مجرد افتراض! بل إنه نتيجة وحقيقة ملموسة ومتجسدة، حقيقةً صارخة كصرخة ومضةٍ من نورٍ ساطع!

إنها الدهشة.. حيث ليس باستطاعة شيء أن يحتوي أبعادها سوى الصمت، فماذا عساه قلبي أن يخطُ وما عساه لساني أن ينطق في حضرة الدهشة!

أتدري يا عزيزي؛ من الصعب أن يتمكن نضوجنا من اكتشاف الأشياء! نعيش في دروب الواقع، غارقين في استخلاصاتنا وما تهينه لنا من حكمةٍ وبلوغٍ للمعرفة، فلا فرصة لأمثالنا لذلك الاكتشاف البريء.. أمثالنا ممن يحملون في رؤوسهم عقلاً لا ينام، وصراعاتٍ لا تنضب، ورغباتٍ لا تنتهي. لذا أحبه، أحب الاكتشاف وأسعى إليه بشغفٍ بالغ، فإنه يُعيد إلي طفولتي..

تلك الأسرار التي نكتشفها نُقدِّرها كثيراً، ونحافظ عليها بأرواحنا، ونفديها بسكوننا.. فقد وصلنا إليها بعد عناءٍ مريرٍ وعذابٍ شديد، وصلنا إليها بعد أن أنهكنا أرواحنا بحثاً عنها قبل أن نستسلم زهداً وربما يأساً من وجودها!

وأنا اكتشفتُك الذي قد يقع يوماً.. وأنتَ اكتشفتني الذي قد يكون.
 أوقن أننا لن نتوقف عن اكتشاف خبايا أغوارنا، واكتشاف امتزاج
 ألواننا، واكتشاف أسرار أرواحنا، في رحلةٍ بحثٍ سرمدية لاكتشاف
 ذلك الجانب المظلم من ماهياتنا فتفاجئنا حقيقة أنفسنا، تدهشنا بكل
 سرياليتها العذبة.. المُرّة! فجمال الحياة لا يكمن في موافقِ بعينها! بل في
 أن نعيش أبعادها أيّاً كانت أشكالها.. جمال الحياة يكمن في مغامرةٍ أبديةٍ
 من الاكتشاف، ولحظات الاكتشاف هي أثمن اللحظات على الإطلاق، أيّاً
 كانت طبيعة اكتشافك هذا.. اكتشاف الحب.. اكتشاف الوهم.. اكتشاف
 الكذب.. اكتشاف الصدق.. جميعها لحظاتٌ من نور، جميعها لحظات
 ذهول، جميعها.. حياة!

ألتقي وإياك مراراً.. حيثُ لم نتفق يوماً أن نكون، نصادف معزوفاتنا
 الموحدة رغم خلوّ النوتات من النغمات وانسحاب الأوركسترا واختفاء
 المايسترو في ظلمة المغيب، نسمع أصداء كلماتنا التي لم تُنطق، رغم سكون
 الفضاء البعيد، نتعثّر في صدقٍ تجمّعنا على أرضٍ هي أبعد ما تكون عن
 الواقع، ولكنها أصدق من أي واقع، بل إنها الأصدق في هذا العالم على
 الإطلاق!

وسنظل على عهدنا المكتوب.. لا يفارقنا ذهول الاكتشاف..
 وإنه حقاً لأمرٍ مثير!

(6)

عزيزي القاصي الداني..

تحيةً طيبةً وبعد،

لا أنتوي أن أخبرك شيئاً بعينه برسالتني تلك، رُغم كل العواصف والأعاصير التي تجول بخلدي، رغم كل علامات الاستفهام التي لا تكف عن الطرق على أبواب عقلي، رغم كل النزاع المُنْهَك الذي يمزق نفسي، رغم كل لهفتي وقدر حنيني وكل ما امتلأ به قلبي من افتقاد تهابه حروف قلبي فتبيناه المُقَل، ولكني أردت أن أرسل لك تلك الرسالة الخاوية -إن جاز التعبير- المفرغة من كل شيء سوى الأمنيات المسكوبة إليك رأساً من روجي دون سابق ترتيب، أردتُ أن أوصول ما لا ينقطع ولا يتصل ربما استطعت منحه الخلود، أردتُ أن أحكم الماء في قبضة يدي ربما نجحت في أن أقتل بها الظماً، أردتُ أن أوقف الزمن لبرهة ربما تمكنتُ من إيقاف الأرض عن الدوران فكشفتُ الستار عن وجه القمر المظلم!

أردتُ أن أصنع من البرق قنديلاً لا يخفت ضوءه، وأن أصنع من الظلام دفاً عناقٍ متصل. أردتُ أن تتذكرك رسالتي، لعلها تبعث في نفسك ذلك الشعور المتفجر الخافت الذي تبعثه في نفسي رسائلك المفاجئة العفوية تلك التي لم تُخطها لي يوماً!

رسائلك المُنتظرة غير المتوقعة، رسائلك غير المرسلة، تُحيي بعيني ابتسامتي، وتبعث في قلبي السلام..

عزيزي البعيد جداً..

كن بخيرٍ يكفي لأن يُحرر هذا العالم من أسره ويوقظه من سكرته.

(7)

عزيزي القاصي الداني..

تحيةً طيبةً وبعد،

لن أكتب لك عن السنوات العجاف، حين كانت الأجساد.. جميع
الأجساد من حولي خاليةً من الروح! لن أصف لك قدر الموت الذي كان في
الأشياء، وطنين الصمت المنبثق من أكثر الأماكن صخبًا! لن أذكر لك كيف
بهتت الألوان حتى تشابهت لتقترب جميعها من اللون الأصفر الباهت..
لون المرض!

لن أخبرك عن رائحة الحزن الخانقة الممتزجة بطعم اليأس شديد
المرارة.. ولكي سَأحدثك عن ذلك اليوم حين هطلت الأمطار من حيث لا
أعلم!

لحظة استسلمتُ لحالة الغرق في ذلك الخواء الكئيب، حين تساقطت
بضع حياتٍ من ذاكرةٍ بعيدةٍ أو ربما قريبة تدفع أمام سيولها كل ما تقابله
في طريقها من كلمات وابتساماتٍ قديمة منذ عهدٍ بائد، تستحيا الخُطى
ألربما انتشلتها من الغرق.. كلما أشحت بعقلي عن تلك الذكريات ازدادت
إصرارًا على اقتحام تلك العتمة بداخلي، حتى انتشر في غياهب الظلام
نور وجودك البعيد ليضيء لي كل شموع الأمل من جديد، وما إن تفتحت
ابتسامتك في ربوع خيالي حتى أشرق الشمس وتبدد الظلام وللعجب فقد
أمطرت رغم انقشاع كل الغيوم! وإني لأعشق مداعبة المطر لوجهي، وربته
الرفيق على رأسي.. وإني لأعشق انزلاقه على جسدي وكأنه تريقٌ يمنحني
الحياة.. يشملني بخصلاتٍ من عناقيد الشمس الأصيلة والتي لولا لهيها..
لما سقط المطر!

يلمسنا البعض وتبقى آثار لمساتهم تلهبُ أرواحنا.. دون أن تمسنا
أيديهم! يقرأنا البعض كلمةً كلمة، دون أن تنطق ألسنتنا حرفًا أو تُدرك

لألسنتنا لغة! وعند مفترق الطريق، وكلما هبت علينا رياحاً مُحملةً بالألم،
لا نغادر! بل ننتظر هطول المطر..

إن لليقين وجهًا مخادعا يعشقه الشك، وجهًا لامعًا برّاقًا يحمل
ملاحم الغرور! فاليقين هادئ الطبع مستتر، لا يعبر عن ذاته في صخب،
فإن أقدم على فعل ذلك.. فتأكد بأنه ليس سوى وجه الغرور!

وما أبصرته روجي في نهاية ذلك النفق الطويل لم يكن سوى اليقين.
كان اليقين يا عزيزي..

والذي لولاه، لما انتظرت هطول المطر!

(8)

عزيزي القاضي الداني..

تحيةً طيبةً وبعد،

إنَّ كل فكرة نعملها بداخلنا تحمل معها فكرة أخرى تناقضها، وإنَّنا دائماً في حالة تاهبٍ للاختيار!

وكل الخيارات صحيحة، وكلها خاطئة إلى أن تقرر التجربة عكس ذلك.. فلا مجال للقرار المُسبق.. ولا مجال للرجوع!

لا مجال إلا لأن نسير قُدماً لنكتشف كل شيء! فيتغير كل ما تم إثباته يوماً، ويتحقق كل ما أنكزناه ذات يوم.. فليس هناك ثمة ثوابت! إن التغير لغة الكون وسنة الحياة وروح الحركة، التغير هو سمة الوجود، ولكن ما يذهلني حقاً أنني وبعد كل تغيرٍ يطرأ على عالمي أكتشف قوة ثبات ما ينبض بمكنون قلبي من ميثاقٍ محكوم رغم استتاركٍ طي الغيب! وذلك ليس من سمات الواقع فكيف لي أن أفسر ذلك اللغزيا عزيزي؟ وكيف لي أن أترجمه إلى حروفٍ أو أفكارٍ مقيدةٍ بما يحدُّ الحياة من أطُر؟

ورُغم أنني أزداد كل يوم تمسكاً بحروفي، إلا أنني كلما تمسكت بها غادرتني، حتى أنها باتت تهددني بالرحيل!

وهل لي أمام وعيدها سوى التسليم؟! فالتسليم حرية ممنوحة، ومنحة محرّزة.

أنعلم! أحياناً أتصور أن في اقترابنا لخطوة واحدة فناءً للكون! وأحياناً أتصور أننا لسنا سوى واهمين متلهفين على تجرع شربة حقيقة واحدة من ذلك الوهم المتجسد حول كل ما تلمسه أنفسنا وما تبصره قلوبنا حولنا من أكاذيبٍ تحمل ألف وجه. ألا ليت للأقنعة فرصةً لارتداء الوجوه فتدرك قدر ما نتحملها في تفاصيلها من كذب!

ثُمَّ نُوَلِّدُ مِنْ جَدِيدٍ

لِيَتَّهَى تَفْعَلُ يَا عَزِيزِي..

(9)

عزيزي القاضي الداني..

تحيةً طيبةً وبعد،

لا أدري لِمَ تتبعثر الحروف بين يدي كلما هممت بالكتابة إليك! وكأنني لا أدرك مبادئ الكلمات ولا أميز حدودًا لأبعادها!

أدرکتُ أن كل الأشياء شديدة الترابط ببعضها البعض يا عزيزي.. رغم تميز قوالها وشدة تمايز مقولباتها إلا أنها مترابطة بشكلٍ مُفرطٍ في التماسك!

كل أنواع الأفكار مرتبطة بكل أشكال المشاعر وبألوان الذكريات القابعة في صناديقها السوداء، وتتلألؤ الأمنيات في المُقل، وبعود الأحلام في ربيع العلاقات والليالي الصيفية، وبالطقوس الحياتية اليومية، وبالظنون المقيمة في نفوسنا، وبالخيالات والهواجس، والهوم والأحزان، والبهجة والنشوة، واللهفة والحنين، والأرض والهواء، والكون والفضاء، والخلود والفناء! كلها مرتبطة بعضها ببعض، منظومة كقصيدة شعرية مُقفاة أو كسلسلة ملونة متناهية الطول تتكرر بها الحلقات الملونة بنظمٍ موزون! فأين أنا من كل ذلك.. وأين أنت من هذا النسيج الموغل في التمدد!

لا ثبات يا عزيزي، لا محطات ثابتة أو نهايات واضحة لأي شيء! حلقات تجذب بعضها البعض، ذبذباتٍ تدفع بعضها البعض، موجاتٍ تبادلية تستبدل بعضها البعض..

يقولون إن لكل شيء نهاية ولكن أين هي تلك النهايات!! في أي أبيات القصيدة؟ لأي مفاتيح السلم الموسيقي؟ لأي درجةٍ من درجات امتزاج الألوان، عند أي مدار؟ خلف أي ستار؟ تحت أي الأسرار تكون؟ بأي الصور تظهر، وبأي ماهية تبدو؟ وفي أي قالبٍ تنتظر في سكون؟!

كيف ومتى وأين! وكل الأشياء.. مغزولة ببعضها البعض، تقود أحداها إلى الأخرى في تناغم سيمفونية مطولة.. بعضها عذبٌ يسلب الألباب، وبعضها نشارٌ يُمزق الوجدان.. ليتجسد من بينهما لحنٌ عنوانه (الحياة)!

(دو دييز) يمس أوتار أرواحنا، يرفعها عاليًا قبل أن يتلقفها (سي بيمول).. لينخفض بها على درجات سُلّم (دو ماجور)! حيثُ لا مجال (للمقامات)! لا مجال.

فكل شيء تبدى لي يومًا وكأنه النهاية اكتشفتُ بعد مرور بعض الوقت بأنه لم يكن سوى بدايةٍ لأمرٍ جديد! فأين هي تلك النهاية، أهنالك حقًا نهاية؟! لا أظن أبدًا يا عزيزي، لا أظن أن النهايات حقيقية، أظنها ليست سوى هاجس مجنون يدفعنا دفعًا لأن نبحث عما ثبت وجوده طوال الوقت.. مجرد وهم لا يحمل أيًا من وجوه الحقيقة! مجرد (نقطة) متأهبة تتربق الوقت المناسب لتفترض انتهاء جُمُلٍ أبدًا لا تنتهي!

توقفَ بي الزمنُ بعض الوقت، أيجوز لي أن أقيسَ توقف الزمن.. بالوقت؟!

(حينها).. لا، فلا يجوز وصف اللازمان بظرف زمان! (عندها).. لا، فلا يجوز وصف اللامكان بظرف مكان!

لا أجد من اللغة ما أصف به توقف كل شيء، ولكني لم أتلاشى في ذلك الفناء حيث انزويت! لم أنتهي كما ظننتُ وإنما انكَمَشْتُ أبعاد المكان من حولي، رأيتُ مراحل انكماشها بتفاصيلها الكثيرة، ثم وإذا بي خارج حدود المكان.. أصبح في فراغٍ لا ماهية له، فراغٌ لم أستطع أن أميز به أبعادًا لأي شيء! فكل الأشياء تشابهت حدَّ التوحد! تماسكت حدَّ التصلُّب، تكاثفت حدَّ التكتل! ثم انفصلت عن ترابطها لتنصهر في قالب واحدٍ بداخلي، فاستعصى الفهم والإدراك وفقدتُ الوعي بكل ما يحيط بي ولكن ازداد

وعبي وإدراكي بذاتي، فعندما نفتقر إلى الراحة، نبقى أبعد ما يكون عن مفاهيم التوازن.. فنحرق في باطن أنفسنا بحثًا عن نقطة ارتكاز! وإذا عدتُ إلى الواقع لاهثةً خوفًا من فقدان بوصلتي وسط تلك الأهوال، ما تذكرت سواك!

وكأنك قائم بذاتك مفصولٌ عن كل تلك الأشياء المغزولة! وكأنك كلمةٌ من حيث لا لغة، تجسّد من حيث لا مادة! نداءً من حيث لا صوت! وكأنك روحٌ من حيث لا جسد ليتناغم كل ذلك مع وجودك غير الملموس، أو لا وجودك المتجسد في خيالي المنهك.
ثم ها أنا ذا.. أولدُ في كل يومٍ من جديد.

(10)

عزيزي القاضي الداني..

تحيةً طيبةً وبعد،

يتبين لي وبمرور الوقت أنني لا أكتب إليك وإنما أكتب لذاتي، فكلما بدأت بالبحث عن العزلة التجأت إلى رسائلي تلك! ولا أدري حقيقةً كيف أنني لا أخشى افتقاد عزلي إذ أصرحك معي فيها.. فكيف تكون عزلة بينما أنت برفقتي! تخبرنا (أوليفيا لاينج) في كتابها (مدينة الوحدة)، أن الشعور الحقيقي.. الصافي.. الغني، يُعرف بشدة رغبتنا في تقاسم تلك اللحظات التي نشعر فيها بتمام الوحدة! وإني لأعرفك ولا أميزك في واقعي بين المتجسدين من حولي ولكنني أؤمن بوجودك في مكانٍ ما وفي زمانٍ ما، ولا أجد غضاضةً في أن تر افقني عزلي.. ولا أجد في ذلك ما يهدد وحدتي!

أتعلم.. إني أخشى الاستسلام للشعور بالبهجة، أخشاه لأنه السبيل الممهد إلى التعاسة! فإني ما كنت لأشعر بالتعاسة لولا أن أسكرتني البهجة يوماً، فلولم أمرّ على تلك الزهور المفتحة الفواحة ذات يوم، لما كنت قد أدركت أبداً أنها منغلقةٌ على رحيقٍ أخاذ! ولكنك اكتفيتُ بفكرة أن هكذا تبدو الزهور، مجرد بتلاتٍ زاهية الألوان لا تحمل بين طياتها ذلك السر الدفين!

أبتسم كثيراً، أبتسم كالبلهاء.. في كل وقت وبصحبة أي شعور! ولكنني لا أستسلم للشعور، أقاوم ذلك بكل ما أوتيت من وعي، وقد وصلت إلى تلك الدرجة حيث أقوم بذلك دون استدعاء إرادتي.. فإني حقاً ما عدتُ بحاجة إليها.

ستعجبك ابتسامتي.. لأنها تُظهر أطراف أسناني المنتظمة، وتجعل وجنتي متكورتين بما يكفي لإغلاق عيني عن هذا العالم.. ولكنني لا أسمع إلى أن أبتسم يا عزيزي بقدر ما أتوق لأن تنغلق عيناك فتحجب عني كل شيء.

بينما أنا قابعة ها هنا في صومعة عزلتي الدافئة، أغوصُ في وجداني باحثةً عن شيء ما ربما اختبأ عني، وجدتُ أنني قد نبشتُ كثيرًا في نفسي حتى أنني ما عدتُ أتحمّل المزيد من التنقيب! أظنني سأحدثُ ثقبًا ما برأسي إن أقدمتُ على المزيد من البحث، حينها؛ قد يجد ذلك النور المهرمنفدًا له بداخلي فيغشي كل ما أردتُ أن أخبئه وقد كسته عتمة الظلام. إنني لا أجد في الحديث مع الآخرين أيّة متعة، فأغلب الأحاديث مبطنّة بالكذب والافتعال! فهي إما ارهاصات لإرضاء هواجس النفس وخيالاتها المقدسة.. أو مبالغات لإرضاء الآخرين.. أو محاولات تسعى لنيل انتباه مؤقت أو إعجاب هزيل يستمر باستمرار وميض شهب السماء، أو انعكاس لأفكارٍ لا تمت للحقيقة بأية صلة! ولا تتصل إلا بما وصلها فاتصل بما يحيط بها.. فما من أحدٍ يود الوصول إلى الحقيقة يا عزيزي، ذلك فقط ما يعلنون السعي خلفه بوجوه متأثرة وبصوتٍ رخم، ولكن في الواقع هم يسعون خلف كيفية إثبات حقيقة تخصهم وحدهم!

الأحاديث فارغة واهية، لذا أقدم الصمت.. والصمت إله العزلة، والعزلة هي ملاذي الأول والأخير.

إن المستقبل ليس سوى أصداء أحداثٍ مضت واستقرت تنتظر مرورنا عليها في استسلام، لا شيء يمر مرور الكرام، لا شيء يمر علينا دون أن يخلف وراءه أثرًا محفورًا بذاكرتنا حتى وإن لم ننتبه لمروره، بل حتى وإن تناسيناه.. كذلك هونحن، لا نرحل قبل أن نترك بصمات أرواحنا على كل ما نمر به، ولكنني أهرب من الاستمرار في الحالات، لأنني أدرك أن نهايتي هي الخلود في الماضي، في قصة ما أتحوّل بها من بطلةٍ إلى ذكرى، مجرد ذكرى ملقاة على إحدى رفوف الذاكرة.. يغطيها الإهمال! ربما استرعت انتباهك يومًا للحظة في أثناء بحثك عن ذكرى أخرى قريبة منها وربما مجاورة لها، وربما سقطت في بئر النسيان بينما أنت تُهَيِّم مكانًا لذكرى جديدة متقدمة مهيرة.. تغنيك عن تلك القديمة الباهتة.

أما الوعود فهي كالأمطار يا عزيزي، مبهجة ولكن تتسربها أرض الواقع في هدوء، تبتلعها لتستمر بها الحياة..

لذلك أكره الوعود! فهل نملك أن نعد بما لا نملك! هل نملك أن نعد بزمنٍ لا يكشف عن وعوده أو بغييبٍ محجوبٍ عن الآن!

الوعود الصادقة ليست سوى أمنياتٍ طويلة الأجل، تحتضر مع مرور الوقت.. كأى شيء تفارقه روحه في هدوء، كموت اللحن على مشارف السكون، أو موت أمواج البحر على أطراف الشاطئ، أو احتضار الظلام على يد بصيصٍ من نور..

والوقت.. هو أزمة كل المشاعر! هو السبب والمسبب لوجهي عملة الشعور، البهجة والتعاسة!

أدرك أنني لن أستطيع أن أوقف الزمن، ولكنني أستطيع أن أوقف شريط الذكريات بكامل إرادتي عند ذكرياتٍ بعينها، بل وأعيدها مرارًا وتكرارًا.. راميةً بقواعد الزمن عرض الحائط، أعيش أينما أردتُ أن أكون وأستدعي أيما أردت استدعاءه من أرشيف الذكريات، وبينما أنقب في ذاكرتي يباغتني ما لم أتوقع أنه يومًا قد حدث! ولكنه قد وقع بالفعل ثم اختبأ بداخلي يلوّن كل مشاعري دون أن أدرك أنه يفعل..

والكارثة في أنني لا أنسى!

لا أنسى سوى ما أردت تذكره.

(11)

عزيزي القاصي الداني..

تحيةً طيبةً وبعد،

أجد أنه ليس من العدل أن أراك في أحلامي دون أن تراني أو أن تعلم شيئاً عن وجودي أو أن تدرك أيّاً من أبعاد حقيقتي! ليس عدلاً أن أكتب لك من الحروف كل ما تلده الأبجدية من كلمات، دون أن تُدرك أنني حية أرزق على صفحة ذلك الوجود! ليس عدلاً أن أفضي إليك بكل مخاوفي وأشاركك كل أحلامي وأقص عليك قصص أحزاني وأسرُّ إليك بأوهامي بينما لا تُرسل لي أنت سوى رسائلٍ ممتلئةٍ بالصمت!

فضضتُ رسالتك الأخيرة عزيزي، كانت مُثقلةً كسابقاتها، ممتلئة.. متخمةً بالعدم، مكتنزةً بالسكوت، مضطربةً.. تمامًا كاضطراب صورتك على صفحة خيالي..

أعلم.. أنك أبعد من أن تكون حقيقة، بيدَ أنك أدنى إليّ من اختلاج أنفاسي، حارسًا على باب وريدي، تُفني كل من أتى تائبًا يحاول تلاوة صلاةٍ خاشعةٍ في محرابٍ قلبي، تقاتل كل من أتى محاربًا أراد الاستشهاد على ضريح فؤادي، تلقي اللعنات على كل تائهٍ أراد اللجوء إلى سويدائي ليحتمي بظله الوارف الظليل..

تثير الأعاصير بقلب سكوني، وتبعث الفوضى بكل ما أمضيتُ زمنًا في ترتيبه وتنسيقه وصقله وتهذيبه!

ولكنني حقًا لا أبالي! لا أبالي يا عزيزي بما يسببه بقائك بداخلي من حروبٍ دامية وكوارثٍ مدمرة و انفجاراتٍ مدوية.. لا أبالي بأثار خطاك التي لا تزول أو بصمات روحك على جدران روحي المنهكة..
فقط كُن.. فليس عدلاً أبدًا يا عزيزي أن أكون ولا تكن..

ثُمَّ نُوَلِّدُ مِنْ جَدِيدٍ _____

ليس عدلاً ألا يكون لوجودي انعكاسٌ أراه فأبصر به ذاتي! أن لا
يصلك صوتٌ من تراتيل ابتهالاتي، أو دموعٌ تلت أو سبقت ابتساماتي..
ليس عدلاً أن تحيا معريداً بخيالٍ بالٍ.. دون طلبٍ بالمثل..

(12)

عزيزي القاضي الداني..

تحيةً طيبةً وبعد،

هل سبق أن أخبرتك عن ذلك اللون الذي أعشقه؟ هل قصصتُ عليك قصة اللون الأزرق؟ لون السماء حين تبتسم للشمس، ولون البحار حين يلهمها النهار..

لون السلام، لون العطاء، لون القوة، لون الحياة.. ولون روحك أنت! روحك التي لمست روحي من حيث لا أعلم، لتوقظها من سبات وحدتها السحيق..

أعوام مضت تخللتني أيامها بكل ألوانها حتى سلبتني كل ألواني، عمرٌ دُيِّلت صفحات فصوله جميعاً بفاصلةٍ منقوطة، لا تُدرك للبداية ميلاداً ولا للنهاية موعداً!

حياة.. بحثتُ بين أمواجه عن كل شيء! إلاك أنت! رسمت بها كل الملامح عدا ملامحك أنت، كتبت على صفحاتها كل الكلمات عدا وصفك أنت، نطقت بها كل الأسماء سوى اسمك أنت! وما أجمل أن أجدها حيث لم أبحث عنك! ما أجمل أن أصطدم بحقيقة وجودك في غمرة اليأس وفي أعماق الخيبة حيث غرقت كل آمالي! ما أجمل أن يتجسد لك الحلم بعد سنين هزيلةٍ عجاف، أن ترى النور منبعثاً من أكثر الأماكن عتمة! أن يغمرك الدفء رغم كل ممارسات الصقيع!

لا أدري يا عزيزي ولكني أظنك أجمل من أن تبقى.. بل إنك أروع من أن تكون! ربما أنت أبعد من أن تقترب.. وأقصى من أن تهبط إلى عالمي الفارغ منك! وربما تكون أدنى من أن تتقدم نحوي.. وأقوى من أن تتقهقر عني. صدقاً لا أعلم يا عزيزي.. ولكن تلك هي سمات الخيال، حيث يمتزج زوجٌ من كل نقيضين..

ثُمَّ نُوَلِّدُ مِنْ جَدِيدٍ _____

ربما صادفتك يوماً.. وربما لن أصادفك أبداً.. ولكن ما يهمني حقاً هو
أن روحي قد التقتك منذ زمن بعيد..
فروحي هي حقاً من بحاجةٍ إليك.

(13)

عزيزي القاضي الداني..

تحيةً طيبةً وبعد،

ها قد أمسكت بقلمِي أخيرًا بعد أيامٍ وليالٍ يهرب فيها ويختبئ من مواجهة الصفحات الفارغة. ها هو القلم راقداً بين أناملِي يرتعد خشيةً من جلال لحظة التدوين! وأخيراً قد وافته الشجاعة لأن يستقبل ذلك النور الساطع للأرواح الهائمة بعد صمته الطويل، بكلماتٍ هي أقرب ما تكون إلى الفقر الشديد في التعبير منها إلى المعاني!

أن يصيغ بقايا كلماتٍ متكسرة تستحيل فتاتاً تذروه الرياح أمام الحضور المهيب للأرواح النقية..

ها قد نويت أن أُصيب وإن اخطأت، أو أن أخطئ فيما أردتُ الإصابة فيه وإن وُفقت!

كم من العمر أمضيتَ على تلك الأرض الزائلة يا عزيزي؟! كم من السنين والأعوام؟.. كم من الأيام!

بل كم من اللحظات المملأى.. وكم من لحظات الحطام..

عامًا؟.. ألف عام؟! بضع لحظاتٍ ربما؟! أو بضع أيام؟! لا يهم، صدقي.. لا يهم كم سرنا وكم وقفنا..

كم مكثنا فيها وكم رحلنا، كم من مراتٍ وُلدنا.. وكم من مرّاتٍ فارقتنا الحياة!

فأنت أيها الساكن بأوهامي.. لست ما تحمله ذاكرتك من دموعٍ وضحكاتٍ وشغفٍ وخوفٍ.. وجنون!

لست مرأةً لما مضى ولا وصفًا لما هو آتٍ وما سيكون! لست وعدًا لما وقع، ولا عهدًا لما فيه سطم، ولا عددًا ولا حساب! بل أنت هو أنت.. وكل

الأسباب!

إن لقاءنا بتوأم الروح لهو إقرارًا بالوجود وكم ذلك يكفي لوتدري! أن تكون حقيقةً فذلك يكفي.. أن تكون عذبًا رغم أنف مرارة الأيام.. واقعًا رغم انهزام الأحلام، حلمًا رغم تجلّي الحقائق، وطنًا رغم تماهي الحدود.. أن تكون باقي رغم كل ما يُلوّح به الوجود.. من فراقٍ وفناء!

يومًا ما، سترتدي روحك جسدًا ليدركك وجودي قدرًا ولو بعد حين..
ولو بعد الحين بحينٍ عظيم!!

لا أدري حقًا لم تسبق الدموع حروفي، نُعِزُّ خُطَى ابْتِسَامَةِ فَرِحَتِي
باحتمالات وجودك، وتحول بيبي وبين ما أخطه من كلمات، لكنه ليس
حزنًا يا عزيزي.. ليس حزنًا وإنما هو الشجن..

أوتدري ما الشجن!

هو أسمى السعادة.. إذا ما حانت لحظة ميلادها الأخير..

(14)

عزيزي القاضي الداني..

تحيةً طيبةً وبعد،

قد يفاجئك أنه ورغم كل ما أسطره من كلمات الحب.. إلا أنني لا أحب أحاديث الحب! لا أحب وعودها المُرسلة.. فإن أغلب كلماتها تتبخر كالسراب أمام أسبابٍ لم أجد منها يومًا شيئًا من المنطق أو العقل أو العاطفة!

لا أحب سكوتها.. فسكوئها خادع مقارنةً بصخب ذلك الشعور، ذلك الصخب هستيري الصراخ في ربوع قلبٍ قد ظن أنه موصدٌ بإحكام!
لا أحب مفرداتها.. فمرادفاتها خاوية، ضعيفة، عاجزة، أمام ما يحمله ذلك الشعور من معانٍ فاضت حتى جفت كل بحور اللغات من المعاني!
قد يفاجئك هذا.. ولكني أتمنك أبعد ما يكون عن تلك الأرض بقدر شوقي للنظر إلى عينيك الناطقتين باسمي..

فالأرض لا تدرك لغة الأرواح يا عزيزي.. الأرض لا تدرك سوى لغة الأجداث.. لا تسمع إلا وقع الخطى.. لا تنتبه سوى لارتعاش الأبدان.. لا تتعطش إلا للأشلاء البائدة.. وإني أحب رحابة السماء! فهي بالكاد تكفي لتكون ساحةً لرقصات روحٍ شاردة، تشتاق الهروب من سجن الجسد..
ما أجمل أن يولد كل ما هو حيٌّ في السماء.. فما يولد في الأرض يولد لزواله بعد طول شقاء!

ذاك اليوم حين راقصتني روحك حتى انتفض قلبي يرقص بيننا.. كاذب الواقع أن يزول خجلا يا عزيزي أمام شدة صدق الوهم! لقد.. تنفسنا الحياة معًا! وهذا لو تعلم أشد صدقًا من أن نكون معًا!!

أتظنني أهذي! فليكن.. دعني أخطُ هذياني بفرشاتي، دعني أكتب ما لا أملك من القوة لأعلمك أو أعلم به نفسي، دعني أحلم، لا تهدي أحلامي ممحاة.. فقد كتبتك بحروف قلبي ألقًا، ومحتك بممحاة عقلي دهرًا ولا يزال أثرك باقيًا، بقاء الروح على قيد الخلود. فكيف عساني أن أمحو الأحلام!؟ كيف عساني أن ألقاك دونها في صحوٍ أو في منام، ربما لو كنتُ قد تعمدت لقاءك لما كنتُ قد أبصرتك كما أبصرتك روجي في كل تلك المصادفات الحية! وأنا لا أتمناك زائلًا.. بل خالدًا خلود روحينا.

فإلي لقاءٍ منتظر في أرض الخلود..

(15)

عزيزي القاصي الداني..

تحيةً طيبةً وبعد،

كثيراً ما يشغلني أمر الأسرار وراء الأشياء، يجذبني ما توارى خلف كل شيء.. أبحث عما استتر خلف البهجة وما توارى خلف الحزن، أنبش بكل كياني وأعمل كل أدواتي من عقل وجسد وروح لأتواصل مع الأسرار المستترة خلف الأشياء وتلك المدفونة مع أسبابها.

أتأمل مشهد رسوخ الجذور المدفونة تحت شجرة وارفةٍ بينما ينشغل الناس بأزهارها الملونة المبهجة وثمارها الناضجة الشهية، أراقب قصصاً يحكيها سحاب الشتاء وأنصتُ لهمسات الرياح الباردة حين تتسلل على وجبي بينما ينشغل الناس بالاختباء في مكانٍ دافئ، أبحث عن الأسباب وراء قسوة القلوب بينما ينشغل الناس بالتألم، أتسلل إلى البيوت المهجورة بحثاً عن الذكريات الحية في جدرانها الباردة.. بينما ينشغل الناس بأساطيرها البائدة، أتأمل أحاديث العيون.. بينما ينشغل الناس بما تنطقه الألسنة! ما استكفيت يوماً من سعيي خلف الأسرار.. وما توقفت يوماً عن جمعها بداخل روحي.. حتى لُعنْتُ بها!

لعنتني الأسرار، قيدتني فما عدت أملك أن أحرر أسراري الكامنة خلف كل ما أقول وأفعل. أتعلم يا عزيزي كيف يكون ذلك الشعور، عندما تتمكن من كشف كل الأسرار من حولك ولكنك تعجز عن إطلاق أسرار ذاتك! أتعلم كم أتمنى أن أتحرر من لعنتي تلك لأكشف لك عن كل أسراري! تلك التي أعرفها وتلك التي لم أكتشفها بعد! أتعلم أن بداخلنا تكمن أسراراً لا يحمل مفاتيحها سوى إنسان واحد! هو وحده القادر على كشفها وتحريرها من مخبأها، أسراراً لم يدرك صاحبها عنها شيئاً من قبل!

ثُمَّ نُوَلِّدُ مِنْ جَدِيدٍ _____

ممتلئة أنا بالأسرار.. فليتك تحررها من قفصها المعلق بساحة روجي،
تلك الهاربة مني لتختبي خلف قضبان ضلوعك.

(16)

عزيزي القاصي الداني..

تحيةً طيبةً وبعد،

ليتني أدرك سبب ذلك الحنين السرمدي الكامن في ذاتي.. أعلم أن الحنين نبت بداخلنا منذ الطفولة ولكن يبدو أنه ينمو معنا كلما مر بنا الزمن. عظيمٌ هو ذلك الحنين بداخلي.. عظيمٌ حدَّ ابتلاعي.. وإني أعلم أنك تشاطرنني ثماره فأنت وأنا وجهان لعملةٍ واحدة.

أفرد ذراعي وأغمض عيني تاركَةً للهواء أن يعبث بخصلات شعري فأتوهم أنني أطيرو.. بل أنني أطيرو! أفتح عيني لأبصر زرقة السماء وأقرأ ما رسمته الغيوم بها من حكايات، أغرق فيما يدعوني إليه الخيال.. وأنتظر. أفترش الأرض، أنثر اللوحات البيضاء حولي ولا أكف عن الرقص بفرشاتي المبللة بكافة الألوان فأرى بين البقع الملونة ما لا يراه أحد سواي، وأغرق في أساطيرٍ يرسمها خيالي.. وأنتظر.

تنقل قدماي تكاد تلمس الأرض تصاحب نغماتٍ على اختلاف أشكالها وألوانها، أراقص كل النغمات على اختلاف أهوائها في أساطير خيالي.. وأنتظر.

أستلقي على العشب الندي في المساء أطالع النجوم وكأنني أنتهي إليها.. وكأن السماء موطني، أوصل أطراف النجوم وأقتفي أثارها حتى أتوه في أساطير حكتها أشكالها.. وأنتظر.

وما زلت أنتظر ذلك الذي ربما لن يأتي أبداً! فطعم الحياة ليس في أن يأتي ما ننتظره، طعمُ الحياة يمنحه الانتظار ذاته! ليتك تجدني، فإنك تعدو بين أروقة قلبي، تدوس بقدميك ممراته الطويلة الرحبة ولا أبالي! تعلق خواطرك على جدرانهِ وحشةً وغربةً وإني حقاً لا أبالي! تقف على

ثم نوّلد من جديد _____

ناصية وريدي لئلا يخطوا قلبي ظلًا سوى ظلك ولا أبالي! فإنك ستبقى
هناك بقدر ما أردت أن تكون، لأنك طفلي مهما كبرت، وملاذي مهما قسوت
وظلي مهما أظلمت الحياة من حولي. ولأني أرضك من حيث نبتت، ولأني
حملتك في رحم قلبي عمرًا طويلًا من الشوق..

حتى أنجبك احتياجي!

(17)

عزيزي القاصي الداني..

تحيةً طيبةً وبعد،

تعبتُ كثيرًا من حلمي المتجدد، لا يلبث أن يقتله واقِعُ ملموسٍ إلا وقد تشكل يغزوني من جديد، كما تتجدد النهارات في عقردار ظلمات الليل الطويل، كما تتجدد العهود في محراب التوبة. كما تتجدد الحياة في الأرض الجرداء بعد طول هطولٍ للمطر.. تتجدد أحلامي، وينبعث في جوفها الأمل ويستيقظ الإيمان في قلبي من جديد، إيماني بوجودك في عالمي هذا!

ربما قد صادفتك في حياتي تلك وربما تكون في حياةٍ أخرى لم أصادفها بعد.. وربما صادفتك في حياةٍ لي بعالمٍ موازٍ! ربما كنتُ فراشةً خرجت لتوها إلى العالم من شرنقةٍ أحاطت بها قبل أن تحفظها بقنينتك الكريستالية الزرقاء فألوذ بالهرب من الحياة في بطن.. أو ربما كنتُ تلك الزهرة ذات الخمس أيام والخمس بتلات.. حين قطفها يدك لينبعث في وجدانك عبير احتضارها، بعد أن تفتحت وريقاتها الغضة قبيل الذبول..

أو ربما كنتُ قطرة ماءٍ ارتشفتها أنت لتروي ظمأ حرمانك من حياةٍ أخرى لا تزال ولم تزل بين الفينة والأخرى..

ربما كنت أنت هو أنا! وربما كنتُ أنا هي مرآةٌ لروحك التي تغمرني بعطرها الفواح. ربما كنتُ لوحةً مرّت عليها أناملك يومًا متسانلاً عما أرادت خطوطها أن تقول؟! أولحنًا انساب إلى أذنك فشرد ذهنك متسانلاً عما تريد به نعماته أن تبوح!؟

ربما كنتُ تلك اليمامة الماكثة على نافذة غرفتك تدعوك سرًّا ثم تسكن في خضوع، نسمةً باردة لامست عنقك في قيظ صيفٍ أرقق أنفاسك، أورذاذات بحر التجأت إلى مسامات وجهك هربًا من واقع لا أجدك فيه ولا أدركك به!

ثُمَّ نُوَلِّدُ مِنْ جَدِيدٍ _____

وربما ستفنى كل حيواتي، وتُدفن كل ذكرياتي في قبوٍ من النسيان،
حيث تسكن ذاكرتك الخالية مني!

لكن الحلم يتجدد..

وها هو ذا يحتل قلبي من جديد..

(18)

عزيزي القاصي الداني..

تحيةً طيبةً وبعد،

حولي من المدارات ما لا يُعد ولا يحصى.. لا أبتغي أن أملأها بأيِّ كان،
ولم أسمى يومًا لذلك بأيِّ حالٍ من الأحوال بل أن مبلغ سلامي في أن تظل
خاوية.. وإن مبلغ سكوني في تمام الانعزال..

ولكنها رغم ذلك ممتلئة عن آخرها.. متخمة بكل من أراد الاسترخاء
في واحة من الطمأنينة أو الاختباء بظل قلب ينبض بالحياة أو ابتغي رشفة
اهتمام أو لجوءً لدوحةٍ وارفةٍ من السلام..

ممتلئة أنا بكل من أراد المكوث ولم يبتغي عني الرحيل.. ورغم إنهاي
البالغ من كل ذلك الإزدحام إلا أنني لا أملك أن أقصي روحًا من مدار ابتغته
لنفسها حولي واستطاب لها المكوث فيه يومٌ كان أم دهرًا أم عمرًا مديد..

يأتي البعض ينتوي رحيلًا فيمكث.. ويأتي البعض يبتغي مكوثًا
فيرحل.. ويأتي البعض لا يدري فيما كان بقاؤه.. ويرحل البعض لا يدري
فيما كان رحيله! لا أسأل أحدًا عن سبب مجيئه، ولا أجادل أحدًا على
طول مكوثه، ولا أعاتب أحدًا على بكور رحيله..

لا أشغل نفسي بأثار خَلْفها البعض عند رحيلهم أو باقات الزهور
المنثورة كنايةً عن النهايات أو مقدمةً للبدايات.. فكل الزهور تذبل أينما
وضعت ووقتما خُلِفَتْ..

لا يشغلني ما يريده مني كل هذا الزحام، فكلُّ له ما أراد وكل من مكث
يطيب له المكوث وكل من رحل يطيب له الرحيل. لا أملك وسط كل هذا
الزخم سوى بابٍ واحدٍ هو باب قلبي أغلقه على من قُدِرَ لي أن يكون ناميًا
بداخله.. لا يعلم بوجوده من أحدٍ سواي!

ربما اهتديت إليَّ في غمرة انشغالي، تائهًا في كل ذلك الضجيج والزحام،
ولكنك لا تدري شيئًا عن مكانك المنعزل، حيث يُغزل لك وحدك فيه من
الطيب ما يكفي ليغرق كل تلك الوفود بل ما يكفي ليغرق كل مداراتي
فينهل منها القاصي والداني، يقتات عليهما الماكث ويأخذ منها الراحل زادًا
لرحلته يكفيه وكل من يقابله على الطريق.

أتدري يا عزيزي، لا أَلَمَ لِمَن امتلأ قلبه بالحب الوفير، وإنما ذلك الذي
نظنه أَلَمًا إنما هو وخرُّ غرسٍ متجدد لنبتة الحب الخالص، تلك التي تُبعث
من قلب الصدق. الصدق يا عزيزي.. الباقي الوحيد في كل قصص الحب
الخالدة، والناجي الوحيد من كل قصص الحب الزائفة، والشهيد الوحيد
في كل قصص الحب المنحورة.

(19)

عزيزي القاصي الداني..

تحيةً طيبةً وبعد،

عجيبٌ هو أمر الزمن، نعايش أرواحًا لأعوامٍ وأعوام دون أن نلتقي للحظة، وتدركننا أرواحٌ لسويعاتٍ قليلة فنمضي وكأننا قد عرفناهم منذ الأزل، وكأننا كنا على موعدٍ لتجديد لقاءٍ وقع في ماضي بعيد..

تلك الألفة وذلك السكون، وتلك الغبطة تغلها ابتسامَةٌ صادقة ناطقة بكل الوعود البلورية الرقيقة.. فعود الأرواح لا تُقطع! وعودها.. لا تُنطق! ولا تُنتظر! وإنما تولد بميلادها..

أنعلم يا عزيزي متى نجد ضالتنا؟.. فقط عندما نتوقف عن البحث عنها! فليس كل من يرى حروفنا بقارئ.. وليس كل قارئٍ بمدرك! وليس كل مدركٍ بذائق!

حائرةٌ أنا في أمر تلك الرسائل الهامسة التي تصلنا، تلك المختبئة في لحظات الصمت بين اهتزازات الوتر، حيث يصمت اللحن لحظاتٍ ليتمالك نفسه ربما، أو ليلتقط أنفاسه المهدورة على مسمع من البشر، كم منهم استطاع قراءة اللحن يا ترى! كم منهم قد أدرك الأساطير المستترة خلف نواته، وكم منهم قد ذاق جمال لحظات الصمت بين جملة المسترسلة!

تلك اللوحات حيث الرسائل المختبئة في خطوطٍ ومنحنياتٍ ممتدة إلى حيث لا اكتمال! حيث الدوائر المنقوصة.. والألوان ما بين متنافرةٍ ومتجانسةٍ ومنثورة، والظلال الباهتة في غياب النور! كم من البشر تتبع ذلك الخط الباهت حتى اختفى عند حدود اللوحة دون أن يقرر لوجوده نهايةً واضحةً أو غايةً معلنة؟! كم منهم قد قرأ اللانهايات المدونة في أقصوصتها المطولة؟ وكم منهم قد أدرك معنى الوقوف على حافة الوجود؟ وكم منهم.. قد ذاق طعم اللاشيء الممتد خلف فناء الخطوط!

ما العمر إلا لحظات قليلة تلمسنا وتختفي، لتتركنا خلفها بقايا ذكرى
عابرة تبحث لها بأرواحنا عن مستقرٍ وأموها!

فمن يقرأنا يا ترى؟ ومن يدرك صمتنا الناطق بلغة كونية لا تمتُّ
لتلك الأرضِ بصلة!

بل من يدرك كيف السبيل إلى استكمال خطوط ملامحنا الضائعة
تحت وطأة الزمن! من يدرك جمال نقصاننا الأخاذ!

ومن يذوق طعم هويتنا المدفونة خلف الأبواب المغلقة لضحكاتنا
وبكاءاتنا!؟

كم لوئاً نحتاج لأن ندرك أبعاد ذواتنا، وهل تكفي جميع الألوان؟ كم
ظلاً عليه المرور بكياناتنا قبل أن نصل إلى بقعة النور لتغمرنا فتتلاشى
في أحضانها! كم عمرًا علينا أن نعيشه قبل أن تدركننا الحياة أو ندرکہا..
للحظة!

أنا لا أدري! فهل تدري!؟

أجبنی حيث أنت كائن، فإنك بقدر ابتعادك قريب.. وبقدر قربك
غريب.. وبقدر غرابتك تشبيني!

وإني أعلم أن النور لا تبصره سوى القلوب، وأعلم أن النور لا يبحث
عن شيء كبعثه عن الظلام! وفي كلِّ منا بقعة نور.. وبقاع ظلام! فإذا ما
اندمجت بواعث النور ابتلعها الوجود، وامتد منهما ظلٌّ واحد، قابِع حتى
غروب الشمس، أو تجمد الماء..

قابِع حتى الفناء..

فلا ترحل عن الواقع ولا تقرب وكن بينهما برزخي الوجود..

تقرأ.. وتُدرك.. وتذوق.

(20)

عزيزي القاضي الداني..

تحيةً طيبةً وبعد،

إن أكثر من يلهموننا هم أناسٌ لا يدركون أنهم يفعلون! ربما لو أدركوا ذلك لقرروا التوقف عن إلهامنا! أو ربما لأن الإلهام لا يكون صادقاً إذا كان مقصوداً مُتعمداً، وربما لأن مسار الأفكار في الكون يتطلب مبلغ صدقٍ، وصدق السابحين في الملكوت هو أشبه بصدق الأنبياء والرسل، فكانوا المُختارون لإتمام المهمة. لم أشعريومًا أنني قد وجدت مُلهمي، فلم يكن الأمر سوى استكمالٍ لوجودٍ مسبقٍ له بأفكاري، وكأنه امتدادًا لظل كلماتي، أو انعكاسًا لصورة هلوساتي، أو طيفًا لخواطري بمكان آخر لا يشبه الواقع في أي شيء.

لم يفاجئني حضوره، لكن ربما قد فاجئني موعد ظهوره فقد ظننته حاضرًا منذ الأزل، فإذا به لم يحضر سوى الآن، حيث رأيتُ صورةً لنفسي ربما كما لم أرها يومًا من قبل، بملامحٍ.. تغلفها حادثة الميلاد.. ولمعانٍ يشبه في رفته لمعان البراعم قبل استيقاظها من سباتها لمجاهاة الموت!

إن ما نراه في الآخرين ما هو إلا انعكاسٌ لما نراه في أنفسنا، فإن ظهر في سماء حياتك المظلمة شهابٌ مارقٌ فتأكد أنه ليس سوى قبسٍ من نور روحك وقد نفذ من خلالك في غفلةٍ منك!

إن الأمر معقدٌ بعض الشيء، ولكنه حقيقي لأبعد الحدود. فالأرواح المؤتلفة لا تُكَمَل بعضها بعضاً! وإنما حقًا ليست في حاجةٍ إلى الاكتمال! بيد أنها تُرشد بعضها بعضًا سبيلًا إلى ما أرادت عليه أن تكون، ربما لأنها أتت من حيث نريد أن نكون، وربما لأنها التقت بنا في فضاءٍ ما قبل أن نكون. ربما كان قدرها البعث بعد موتٍ وربما.. كان قدرها الرحيل.. بعد حياة!

فِي طِفُولَتِي؛ كَانَ لِي طَيْفٌ يَلْزِمُنِي، طَيْفٌ ظَلِيلٌ كَظَلِّ الْأَرْضِ عَلَى
وَجْهِ الْقَمَرِ، طَيْفٌ لَا مَلَامِحَ لَهُ، كَانَ رَفِيقٌ وَحْدَتِي.. حَتَّى غَابَ عَنِّي فِي زِحَامِ
الْأَقْنَعَةِ.. تِلْكَ الْأَقْنَعَةُ الَّتِي لَا تَكْفُ عَنِ التَّبَدُّلِ فَوْقَ وَجْهِ الْبَشَرِ!
قَدْ فَارَقَ ذَاكَرْتِي فِي خَضَمِّ وَيَلَاتِ الصَّخْبِ، وَإِرْهَاصَاتِ الْجَنُونِ وَنُوبَاتِ
الْغَضَبِ! وَلَكِنِّي تَذَكَّرْتُهُ الْيَوْمَ، تَذَكَّرْتُهُ لِحِظَّةٍ أَنْ أُدْرِكَتَكَ!
أَأَكُونُ قَدْ أُدْرِكَتَكَ حَقًّا؟! أَمْ أَنْتَ مَا زِلْتَ طَيْفًا كَمَا عَهَدْتَكِ مِنْذُ
مِيْلَادِي الْأَوَّلِ.. وَقَدْ قَادَنِي عَقْلِي إِلَى الْجَنُونِ!
أَيًّا مَا تَكُونُ.. وَأَيْنَمَا تَكُنْ، لَا تَنْطَفِئْ!
فِيْنِي أَسِيرٌ عَلَى نُورِ مَشْكَاتِ قَلْبِكَ مِنْذُ الْأَزْلِ..
وَإِنَّا عَلَى مَوْعِدٍ مَا، مِنْذُ زَمَنِ بَعِيدٍ.

||2 سحر التجسد

هل تُخلق بي بعيداً.. إلى حيث لا انتهاء؟
أترفني عاليًا.. حتى تطال أنامل روعي عنان السماء؟!
أطلق أجنحتي لأحلق حد اكتمال حلقات النور حول الأرض
وتحزُّ الروح من جسد الفناء!؟
أتصحبني إلى آخر أبعاد الكون
حيث التقاء الأرض بأطراف السماء..
أتسبح بي في مجاهل ذلك الفضاء...
أتبعثني من وهم حياة.. إلى حياة..
أتقوى على مروري بملك ذات مساء
أتغزلي بين يديك حتى يغمرنا ارتواء!
أتبني من عدم.. بعد أن طافت على روعي الأعمار!
واستوطنت سكنات نفسي الآثار
أتطوي مسافات الزمان..
أتوقف هطول الثواني.. ودوران الأقمار!
أتحرر أسر طيفي؟.. أتعيد إلى ظلي؟
أتمزق ما يقيد جموعي من خضوع جبار!
أتملأ ما جفَّ بسويداء قلبي من أبار..
أتسبح في ما شقَّ فيه من أهار..
أتجرؤ معي على الفرار..
من صقيع وحدةٍ أو من لهيب انتظار!
حررني إذًا!

انتشلي من غياهب التيه إلى حيث ترحل الأسفار
حررني كما يُحرّر اللحن من ارتعاش الأوتار
كما تتحرر النفس من قيود الأوزار!
حررني..

كما الألوان تُحررها الأمطار..
كما الغيوم.. حين تشتاق انهمار..
كما الأريج ينبعث من ارتعاش الأزهار..
حررني.. قبل أن يسكن طواف الدم بعروقي..
قبل أن ترتفع الأسوار..
قبل تَحُرُّ ما في الصمت من أسرار!

(21)

عزيزي القريب..

تحيةً طيبةً وبعد،

لا أدري يا عزيزي من أي كتابٍ سقطت في يدي! غريبٌ عائدٌ من أساطيرٍ طويلةٍ لم تنته بعد! غريبٌ يحمل نصف ذاكرةٍ، ونفسًا لم تُرحم من رماح الحياة! يحرس مشاعرَ مبتورة، وقلبًا له ألف نافذة.. وباب.

غريبٌ يعيش بين دفعتي كتاب، كصفحةٍ مثنية الطرف بإحكام طوتها أيادٍ شتى دون أن تعير قراءتها اهتمام..

رجلٌ.. كظل الريح، كأجنحة الضريح، كلون باكورة الأيام.. تقتله مشاعره كل يوم.. تمامًا كما أحيطه لأزمان لا ينتشله من فضاء خياله سوى صمته المكتظ الممتلئ.

أقرأه كل يوم.. أقرأه كابتهالات الصباح.. كتواشيح المساء، كتسابيح الليل وتباشير السماء، كوردٍ من كتابٍ عتيق أفتحه على استحياء، أقرأه حين يُجنّ وحين يجسر.. أقرأه حين يهجر وحين يلوذ بالفرار..

أقرأه لأنه مُدَجَّجٌ بالحكايا، مُكَدَّسٌ بالأسرار.. كوطني نبذه شعبه، أو أبٍ عاقه أبناءه الأخيار..

أقرأه لأنه.. إنسان! لا يبتغي سوى السلوان.. أنكره العقل، ورفضه المنطق، وأعرض عنه النطق، وأجلّه الأوان..

فكيف لي أن أجعلك طي النسيان..

كيف لي أن أفعل..

وقد سقطت في كف يدي ذات قدرٍ.. تسألني الأمان..

(22)

عزيزي القريب..

تحيةً طيبةً وبعد،

كلماتك الملتحفة بالصمت هي كالبحر يا عزيزي.. تصيب أفكاري بالدوار! تتلون عينك بألف ألف لون.. في كل حين وفي كل يوم. فحينئذ تتشكل بهما لوحاتٌ سيربالية نارية، أريقت علمها ألوانٌ حارةٌ بربرية الترتيب. لوحاتٌ من لهيبٍ لا يحرقني، ولكنه يلفحني فيهنكي.

وحينئذ؛ تحاوطني عينك بعاصفةٍ ثلجيةٍ رمادية، عاصفةٍ من صقيعٍ باردٍ يُثقل أنفاسي حتى يبتلعني الغرق.

حينئذ.. تبعث لي بنسماتٍ هي أرق من نسمات الربيع، لتنتفتح على يدك أزهارى الغارقةً عمرًا في سباتٍ عميق..

وحينئذ.. تذبل في راحة يدي، كورقة شجرٍ برتقاليةٍ عنيدة، تقاوم الاستسلام للسقوط رغم عصف الريح وقسوة الخريف..

وكأنك كل الفصول بكل عام.. تمرُّ في ثوان! وكأنك كل الأماكن.. وكأنك كل الأمان.. وكأنك الملاذ والأمان، ثم وكأنك اختناق الزحام! وكأنك الحيرة بين الألوان في شفق الفجر واللون الغروب، وكأنك ضوء المصابيح يحتضن ظلمات الدروب، وكأنك كل ألحان السلام.. وكل ألوان الآلام.

ينبعثُ من صمته دفاً يهدد روعي، دفاً يُشعلُ السكونَ في شتاءٍ نفسي، فتطيبُ لحنوه مواضع الألم..

إلى أين تريدني أن أخطو معك أولى خطواتي؟ ولم تنزل قدماي تُبقيان على خُفهما الصغيرين رغم مرور السنين..

لم تنزل ضفائري تعدو خلف أصداء ضحكاتي الوحيدة البائدة لم تنزل ذاكرتي تحمل صفحاتٍ من قصصٍ ورديةٍ وأحلامٍ سائدةٍ في داخلي ما

زلت طفلةً أنا يا عزيزي!

أحب اللعب في المطر حتى تبتل ملابسي، وأركض وسط الحقول
يسابق ظلي فراشات هواجسي..

أمد عنقي من نافذة غرفتي لأبحث عن وجه القمر في السماء، علي
أجده قبل أن يفتقد نواعسي، وأداعب الشمس مخبئةً بظلي الممدود
وسط ظلال الطريق المترامية على أرضه في استسلام..

ما زلتُ أربتُ على جذوع الأشجار باحثةً عن عينها المختبئتين..
أكفكف عنها ما تطاله أناملِي من دموعها..

ما زلتُ أحتضن أمواج البحر ضاحكةً حين تحتفي بقدمي، وأهمس
لأعماقه بأسراري وهمومي..

ما زلتُ أرسم من الغيوم لوحاتٍ في السماء وأفترش العشب لأحصي
النجوم في المساء، أقلد أصوات العصافير حين تحوم بالفناء. أكتب بقلمٍ
من رصاص خوفاً من خطأٍ لا رجعة فيه ولا مناص!

أعدُّ الدَرَج في أثناء صعودي، وخطواتي حين أسير بالظلام فإني كثيرًا
ما أكره الظلام..

ما زلت طفلةً تبكي عند الوجع، ما زلت طفلةً تضحك وسط غزارة
الدموع إذا ما داعبت أحزانها أصداً تجاوزيف الودع

فلا تحطم جدران قلبي، ولا تقتلع منه عنوةً جذور براءتي..

(23)

عزيزي القريب..

تحيةً طيبةً وبعد،

لم أفهم يوماً لم يصرون على أن الخيال أجمل من الواقع! ماذا إن لم تُدرك عقولنا من الخيال ما هو كافٍ لإدراك معنى الجمال الحقيقي! إن كل أشكال الجمال ترقد بأنفسنا تنتظر انعكاسها إلى خارجنا إلا جمال الروح ذاتها فإنه يكمن في حقيقتها، هو لا ينبع من عقولنا وإنما ينبع من بين أجنحة أرواحنا فيخترقنا اخترقاً.. وما كان لشيء أن يكون حقيقياً إلا في كونه صادقاً..

وأنت يا عزيزي.. حقيقي لأنك صادق، فكل تفاصيلك شديدة الصدق! غضبك، وجنونك، وحنوك، واندفاعك.. تمسكك الحاربي، وتخليك البارد عني..

صادقاً أنت يا عزيزي.. حتى في كذبك! ممتلئ بالتفاصيل الصادقة، تفاصيلاً حقيقية تتفتح جمالاً على يدك فتغمري بكل مدارك الإحساس بل وتتخطاها إلى منبع الشعور.. حيث تتلاشى كل الذكريات ولا يبقى منها في جعبة ذاكرتي سواك أنت، لا كذكرى! بل كياناً يسكن الروح ويلوذ بها، فتطمئن به ويطمئن بها.. كياناً رائقاً يشفُ صدقه كل ما اعتمل بداخله، وإن أنكر، وإن ارتدى كل أقنعة الادعاء.

كيف يراك الآخرون يا ترى؟! كيف يراك المحيطون بك؟ هل أبصر المارة ما استتر خلف عينيك وضحكاتك المبتورة وسخريتك المرة؟! هل أنصت أحبانك لما توارى خلف جنون غضبك الأعشى، وخلف ملامح سكوتك القاتل، وخلف أوجه ابتساماتك الكثيرة؟ تلك التي لا تغيب عن محياك بأشكالها وألوانها..

هل اكتشف الأقربون إليك منبع دموعك، هل غرقوا في بئر حنينك،
وهل خاضوا تجربة أن يضلّوا الطريق في غياهب وحدتك؟
ليتك تقترب أكثر.. فإني بحاجة لأن أبصر ما استتر خلف عينيك!
خارج حدود الكون، خارج حدود الجسد، خارج حروف الأسماء وتفصيل
الأشكال، لأبصرك روحاً مجردة من كل ما علق بها منذ أن قُدِّرَ لها التجسد،
روحاً خالصة لكونك أنت ولا شيء يعرف أبعادك أو يحدد ماهيتك سواك
أنت.

(24)

عزيزي القريب..

تحيةً طيبةً وبعد،

إني لا أراك ملامح لبشر بل أستشعرك معني، كيأنا وروحًا تحمل كل ما شفت من دواخلها.. هكذا انتلفت أرواحنا منذ الأزل فهدأت واستطابت لها السكنى، بعيدًا عن الأرض وعن الواقع وعن أبعاد الوجود..

أتظنه قد قدر لِحالةٍ كهذه أن تحيا بهكذا وجود؟ أظن أن حالةً بتلك الخصال قد تستقر ببقعةٍ من بقاع تلك الأرض؟! لا أظن يا عزيزي، فتلك الخفقات النابضة شديدة السمو، لا مكان لها على وجه الأرض..

بل أنه لن تنفك أن تنهال علينا يدًا من حديد في كل حين إذا ما سعينا لنسبغ عليها طابعًا أرضيًا بشريًا!

سيُنزع ذلك الوليد مرارًا من بين أيدينا كلما تعلقنا به تعلق الطفل بدميته!

سيُنزع ليحافظ على طهره ونقاؤه إذا ما حاولت نفوس أينا تشويهه دون وعي.. كلما أدركتنا بشريتنا.

وإني لأوقن أن ما سيقى تلك العاطفة من العطب هي يدُ إلهية تمسك على النفس أهواءها ونزعاتها فتكتم أنفاسها لئلا تشوه ذلك الشعور السماوي الرفيع..

لقد لمسْتُ وأبصرتُ لبُ الشعور وجوهره وكأنه متجسدٌ أمامي، وكأنه سحرٌ كُتب لنا أن نذوقه دون التهامه.. وإني لأدرك أن شعورًا كهذا لم يخلق ليفنى بل خُلق ليخلد، فما بين أيدينا ليس عرضةً لأن يُسلب لأنه.. لم يُمتلك!

إن انتظار وقوع معجزة بعينها ينزل بمرتبها من كونها معجزة إلى مجرد أمنية! فالمعجزات لا تُنتظر وإنما تُدعى معجزاتٍ لاستحالة توقعها من الأساس! بل لعجز العقل عن استيعابها أو استنتاج حدوثها فما من منطقي يرشدنا إليها..

وما نحن اليوم بصدد التمني! وإنما التمني خواطرُ نفس، وقد ودعنا أنفسنا منذ زمن بعيد، يوم أن التزمنا محل ميلاد روحينا..
لا أحمل في رأسي المثلث بالفكر سوى العديد من الأسئلة لا أجد لها أي إجابات.. فمن جمع بين روحينا وألّف بينهما هو وحده من يحمل الإجابات التي لن ندركها إلا حين يأذن لنا هو بذلك.

(25)

عزيزي القريب جداً..

تحيةً طيبةً وبعد،

كيف الهروب من ذلك الوصال الساكن بيننا! ما السبيل إلى التوازي!
وكل شيء يمر بنا أو نمر به يجذبنا وكأننا قطبان مغناطيسيان حران.. لا
طريق لأحدهما بدون الآخر! لا توازي! ولا فراق.. بل كل معاني الالتقاء!

فأرواحنا حية يا عزيزي.. توقظ كل ما تطاله وتمربه من موجودات،
فتبعث به الأنفاس، تحيله إلى نبضٍ حي يصرخ بالحياة! فإذا ما لمسنا
الصور تحركت! وإذا ما لمسنا الموسيقى تحدثت، وإذا ما لمسنا السكون،
رقص على قارعة قلوبنا حتى أنهكه وأنهكنا التعب!

أين السبيل إلى فراقك.. ذُلتي! أين السبيل إلى الوداع الخالد
المهجور! وقد استحالت كل الكلمات إلى كلمة واحدة، وكل المشاعر إلى
شعور واحد، وكل المحاولات.. إلى نتيجة واحدة.. هي (نحن)..

بكل ما تحمله الكلمة من اتحاد راسخ.. وارتباطٍ خالد..

بما ترسمه من ضفة واحدة، ومركز دائرة واحد، وخط استواء واحد،
ونقطة التقاءٍ واحدة!

كيف السبيل وأنا أنت.. وأنت.. وأنا!

(26)

عزيزي القريب جداً..

تحيةً طيبةً وبعد،

حين تجسد حلم اللقاء أو ربما حلم التمني المتمثل في البقاء! كنا كطفلين لا نعي من معاني الزمن سوى اللحظة الحالية، خارج مفهوم الزمان، أو ربما قد غادرنا هو راحلاً حين لم يجد منا سوى روحين لا تلمسان الوجود في شيء ولا تحدهما أبعاد الكون المترامية البعيدة.. روحان أحاطهما الخلود بجناحيه فهزم الوقت وأردعه، فلا يهزم الوقت يا عزيزي سوى الخلود!

رحل عنا الزمن في سلام، فلم يزعجنا الماضي بذكرياته، ولم يحملنا المستقبل ما لا طاقة لنا به، كُنَّا خَفَافًا وكَأَنَّنا ولدنا في تلك اللحظة الحالية لنعيشها، بل لنحيهاها إلى أقصاها وللأبد. قصصاً وحكايا ومشاعرَ وأطياف؛ لا يكفي لأن نستدعيها جميعاً بكل تفاصيلها ما تبقى لنا من عمر.. وكأن تلك اللحظة التي فقدت في جاذبية اتحاد وجودنا كامل وزنها! هي شريط عمرٍ يتسع لأحداث عمرٍ بأكمله! تلك اللحظات القصيرة يا عزيزي هي عمر بأكمله جاء ليوقف أعمارنا المارقة وليسحق تحت وطأة عنفوانه عمرًا قادمًا لا نعلم ما سيملاً جعبته!

أتعلم، كثيرًا ما نخترل لحظة اكتشاف بهجة في صورة، حين تشغلنا الرغبة في تملك تلك اللحظة عن أن نحياها!

نضحكي بإحساسٍ حي سعيًا وراء محاولاتٍ لتخليد جثته! فنحتفي به إحساسًا زائفًا حين ينهشنا الحنين!

أما وقد تجسدنا في ذلك الحلم معًا فلم يكن منا أن التقطنا صورة واحدة! ثم لم يشغلنا ما حولنا من واقع وقد أصبح أبعد من أن ينال منا بوجهه الدميم.. بل قد أسكرتنا لحظات اكتشاف البهجة إلى المنتهى.. فلم

نسعى خلف تخليد لحظة واحدة، ولم يشغلنا تملك الزمن، بل قذفنا بأنفسنا لنغرق في ذلك الإحساس النابض بالحياة.. ويا لها من حياة!

وكان اللقاء والوداع هما حدود الحياة وأقصى حيودها.. فإذا ما ابتعدنا شعرت وكأن بعضي لم يعد مني في شيء.. وإذا ما دنونا شعرت وأن مني بعضاً كان ضائعاً منذ الأزل.. وكان الزمان خيال سرمدى ما من وحدة قياس له، وكان عقارب الساعة في سباقٍ مع نهاية كل شيء، وكان الثواني المقبلة هي في الأصل جيوشٌ من الماضي ما انفكت تهفو على حاضرنا حتى هزمتها قوة حضورنا معاً فما لبثت إلا وقد تناثرت حبيباتها خارج حدود ساعتها الرملية.. مع وعدٍ متجددٍ بعدم الرجوع!

وكان الساعات ما هي إلا نبض قلوبنا إذا ما تسارع تسارعت تهذي وكأنها هاربةٌ من الفناء.. أو إليه!

وكان لحظات الصمت أحاديث لا نهاية لها.. وكان النوم شقاء والليل نهار والشمس بدر يبدد ظلمةً أحاطت بهالتنا تحجبنا من كل الجهات..

وكان لحظات الحزن.. بهجةً لا توصف!

وكان لحظات الاختلاف.. اتفاقاً متين!!

وكان لحظات الألم.. إكسير حياة يدب في عروقٍ اشتاقت للحظة حياة صادقة!

وكان الأماكن.. كل الأماكن هي أنت وأنا، حيث حلت أقدامنا وفتحت أعيننا على ابتساماتنا، وكان أرواح البشر المكشوفة أمام أرواحنا سجون لأصحابها ونواذلنا!

وكان اختلاط ضحكاتنا بدموعنا كاختلاط ألوان شفق الغروب بغيوم الخريف.. فلا تدري أيبهجك اندماج ألوانها أم يحزنك زوالها البطيء المتراخي..

ثُمَّ نُوَلِّدُ مِنْ جَدِيدٍ _____

وَكأن اختلاط أنفاسنا.. عطر يتقهقر في وجوده الهواء ويختبئ خلف
حدود الوجود فتتنفس من أريجِه أرواحنا..

وَكأن كل الطرق طريق واحد هو طريقنا..

وَكأن كل الميلاد هو لحظة اللقاء وكل الفناء هو لحظة الفراق.. فلکم
ولدنا ولکم فنینا في اللآزمان المارق حولنا واللامكان المعدوم بين أروقة
تشابهت اتجاهاتها وتفرعت من كل صوب واتجاه سوى اتجاه اتحاد
قلوبنا..

ويكأن كلانا أنت أويكأننا.. أنا.

(27)

عزيزي القريب جدًا..

تحيةً طيبةً وبعد،

مضيتُ أجول الأرض أنقب عن أشياءٍ تشبهنا.. فربما أدركت معنيً لما يقع بين أيدينا من معجزاتٍ وما يدور حولنا من أساطير، فإذا بي أبصر شجرةً وارفةً باسقةً، أصلها ثابتٌ وفرعها في السماء، كلما أقبلتُ على سقيها.. أطعمتني ثمارًا لم يدركها أيُّ من أهل الأرض جميعًا! وكلما ربتتُ على جذعها الجسيم شملتني بظلٍ مديد، ظل دافئٍ يسري به نسيمٌ لم يختبر رفته أيُّ من أهل الأرض جميعًا..

وكلما قبَّلتُ كفوف أوراقها الخضراء المفعمة بالحياة، غمرتني بأريجٍ شافٍ من كل سقمٍ، ومدادٍ لكل وَصَب، بُرءٌ لم ينلُه أحدٌ من أهل الأرض جميعًا..

وإذا بي أبصر سحابةً ثقلاً، كلما عدوتُ استظل بظله الشفاف غمرني غيبته فأحيانى كما لم يحيا أيُّ من أهل الأرض جميعًا! وكلما نهلتُ من ودقِهِ المنهمر ازداد كِسْفًا، فنبئت من روعي ثمراتٍ لم يألفها أيُّ من أهل الأرض جميعًا!

وكلما ودَّعتهُ راحلةٌ لحقني يغمر ظلي.. فيؤنسنى طيفه كما لم يأنس أيُّ من أهل الأرض جميعًا..

وإذا بي أبصر النهر يجري لمستقرٍ له تحت قدمي.. بأسرني.. كلما استسقيتُ منه سقاني صبيباً طيباً.. لم يذق في حلاوته أيُّ من أهل الأرض جميعًا..

وكلما اغتسلتُ في شهبه.. كساني رحمةً لم يدرك في لطفها أيُّ من أهل الأرض جميعًا..

ثُمَّ نُوَلِّدُ مِنْ جَدِيدٍ _____

وكلما تأملتُ جدوله المسكوب.. غمرني بهجةً.. لم تطرق باب قلبٍ من
قلوب أهل الأرض جميعاً..

كم يشبهون أرواحنا.. يا عزيزي!

وقد عجبت من أمر نفسي.. ترى أحياء عليها.. أم أنني لست أسكن
الأرض!

أأدركني الرحيل؟ أم أنني لم أولد بعد!

(28)

عزيزي القريب جداً..

تحيةً طيبةً وبعد،

عندما تتكاثر بمخيلتك الإجابات المتضادة لسؤالٍ واضحٍ بريء، أو تطفو على سطح عقلك تساؤلاتٌ لا تحتاج إجاباتها منك سوى المنطق البسيط ورغم ذلك.. تفقد كل السبل إليها!

عندما تستحيل الإجابات، وتتداخل معاني المفردات، وتصبح الأضداد هي السبيل الوحيد للوضوح!

إذا ما فاجأتك ردود أفعالك وأربكتك ظنونك وأفكارك، إذا ما اقتحم الصمت المبالغت ضحكاتك المسترسلة، لتعتلي شفاهك بسمَةً شاردةً في هدوءٍ.. أو أحببت ما يبلى عينيك من دموعٍ دافئة، تسلّقت عينيك في لحظةٍ من شجن، إذا استشعرت نبض قلبك رغم ارتجاجه بداخلك منذ أعوامٍ وسنين..

أو توددتَ إلى رائحة الزهور.. وتفرستَ منابع الألوان في تفاصيل الشعور، إذا سرقتَ الأحلام منك واقعك، وتشبثت روحك بأطراف الحياة، إذا امتلأ قلبك شباباً في إعادة ميلادٍ.. وتغيرت ملامحك لتبرق من جديد، إذا ما اجتاحتك كل الذكريات تبارزك فيأبى قلبك أمامها الانهزام غير مكترثٍ لما أوحى به إليك من وعيد.. إذا دبّت الروح في تفاصيلك التي وأدتها الحياة لتُبعث راقصةً من جديد، إذا نظرت بالمرآة فأحبتك ملامحك، وأبصرت منها بصيصاً من أمل يكفي ليضيء كل ما غمر قلبك من ظلام، إذا ما أمنت بالتقاء الأرواح في ملكوتٍ بعيد، وأن هناك حتمًا ما يحيط انتقاصك فيكملة من جديد..

إذا بكى قلبك حزناً لافتقادهم ورقص بذات الوقت فرحاً لنعمة بقائهم.. وأصابك من الشوق حنين لعناقمهم، وأيقنت أنك لم تعيش بالدنيا

ثُمَّ نُوَلِّدُ مِنْ جَدِيدٍ _____

هَبَاءٌ تَذْرُوهُ رِيَّاحُ الْوَحْدَةِ.. إِلَّا لَتَلْتَقِيَ يَوْمًا بِهِمْ وَلَوْ لِلْحِظَّةِ صَدِيقٍ وَاحِدَةٍ!
فَاعْلَمْ.. أَنَّهُ مِنَ الْحُبِّ الْيَقِينِ.

(29)

عزيزي القريب جداً..

تحيةً طيبةً وبعد،

أما إنه لا يزهد في الدنيا إلا مَنْ يومًا طلبها.. ولا انصرف عنها إلا مَنْ
يومًا لهث خلفها..

ألا إن النفس تواقفةً إلى الامتلاك حتى تكتفي ولا تزال على عهدها..
وإنها لتمتلئ حتى تستغني إذا ما فاضت ولا تزال على عهدها.. وذلك في
الدنيا يا عزيزي، في ما تلمسه النفس المكبلة وتستقبله سطوح الحواس..
نوافذ النفس وأبوابها..

أما الروح! فلا تزهد ساكنها وإن طالَّت سُكناهم، وإن بلغت من
الاكتفاء مبلغ الكمال.. وإن طالَّت مرتبة الأبد، وإن تسلقت أعلى درجات
سَلَم اللانهائية!

ثم إنها تظل تعلو وتتسامى حتى إذا ما لمست وليفها شبعت وارتوت..
واهتزت وربت.. وأنبتت من كل حسنٍ لمحّةً توجهها الجمال الهيج.. ثم
فاضت ولم تنصرف عنه ولم تزهد في قربه.. بل تزداد به إيمانًا بعد إيمان..
وتلوذُ إلى دفته وإن اشتعلت أطر افها احترأقا أو ماتت أحلامها غرقًا!

لا يزهد الحبيب في حبيبه شيئًا ولا يكتفي منه وإن كان قد وصل منه
حد الامتلاء.. ولا دخل للنفس في ذلك الأمر من قريبٍ أو من بعيد..

أما رأيت زوجين اتكأ على أكتافهما الزمن حتى انحنت.. ونحت التاريخ
ملامحهما حتى تاهت ابتساماتهما بين الخطوط والمنحنيات وانحدرت
دموعهما كقطرة المطر حين تتلوى على الطريق الوعر! أما رأيت كيف يتكئ
ضعف كليهما على ما تبقى من الآخر.. أما رأيت كيف يداعب أحدهما حزن
الأخر فيدب في قلبه الشباب!

ثُمَّ نُوَلِّدُ مِنْ جَدِيدٍ _____

لم يزهد أحدهما الآخر يا عزيزي رغم وطأة أقدام الزمن على عنقيهما،
ولم يكتفي أحدهما من الآخر رغم انحسار سبل التواصل وفقدان بوصلة
الزمان والمكان. حتى إذا ما فارق أحدهما الآخر لحق به وكأن ارتباط
روحيهما أبداً لا يكفي!

لا زُهد إلا فيما وُضِعَ له ثمنٌ فرحُصَ ثمنه، وتجسدت له أبعادُ
فصغر حجمه، وتدنى في قيمته عن موضعه في نفسٍ مكبلَةٍ بما طمعت به
فتوهمت امتلاكه..

لا زهد إلا فيما فُقد بعد امتلاك.. والحب يا عزيزي تماماً كمثل كل
شيء جميل..

حرٌّ.. لا يُمتلك!

(30)

عزيزي القريب جداً..

تحيةً طيبةً وبعد،

أندري يا عزيزي، كثيراً ما تراودني فكرة أن الباحث عن السعادة هو ذلك الذي قد أسكرته السعادة يوماً ما، فسعى خلفها هاذياً لربما قابلهما في طريقه مرةً أخرى.. فكيف لنا أن نسعى حثيثاً خلف ما لا ندركه أو نختبره؟.. أتكون السعادة جزءاً منا يا ترى؟! أتكون السعادة فطرةً ولدنا بها قبل أن يتشوه بنا كل شيء؟!!

وإني لم أكن قد عرفت السعادة من قبل كي أقتفي أثرها، لطالما تعجبت من سباق البشر خلف السعادة، لا أدرك لذلك معنى.. أمّا وقد تذوقتها، فقد اكتفيتُ بنصيبي منها الذي هو أكبر مما قد وفره القدر لكافة البشر على جميع العصور. تلك البقاع التي حملت خطواتنا تسجلها أثراً في ذاكرتها الممتدة عبر الأزمان تضعها مجاورةً لآثار تلك الخطى البعيدة لجسدين أزليين حملاً روحين قديمتين هما روحانا في تاريخ ما!

تلك الألفة بالمكان والزمان لم تكن ألفة الانجذاب إليه وإنما ألفة وطن عدنا إليه من جديد، تلك الهمسات التي أنصتتُ إليها أناملنا بينما كانت تتلمس الأحجار والنوافذ والأبواب، كانت تناديننا لأن نكون جزءاً منها..

التحمتنا معاً جميعنا وكأننا قصيدة عشقٍ مُقفأةٍ طويلة لقصة واحدة، ويكأن أروقة الدور هي راوينا، ممراتٍ تبوح فيها أرواحنا بأسرارها متحررة من كل ما يكبلها..

مشينا في أروقة المدينة القديمة، حتى حملتنا أقدامنا إلى نافذة النور حيث حلقت الأرواح إلى السكون في هدوء بليغ يفصل العقول والأنفس والأجساد عن الواقع المأهول بها جميعاً..

نافذةً حملتنا إلى حالة من السكون وافر السلام، وكأن قاطني دارها كانوا في انتظارنا منذ زمن بعيد لمهبونا هدية الوصول.. وكأنه احتفاءً بكل روحٍ دنت من الحقيقة تلمس فيها الحب المنشود، وكأنه ضريح الصدق حيث يُسلب النطق من كل صادقٍ لا يكفيه بوحه من أن يعكس حجم ما يحمله صدره من عاطفة جياشةٍ وفكرٍ محموم.. ضريحٌ معلقٌ خلف الزمان والمكان محل التقاء أرواح سكنت في جدرانها وأروقته وأرضه وسقفه العالي البعيد، ذلك الضريح هو الميلاد والموت، هو اللقاء والفرق، هو الحرية والقيود، هو الذكرى.. والأمل المنشود..

ذلك المكان كان لنا وحدنا وتلك الهبة كانت لروحين اجتمعتا معاً في يومٍ كان خارج الزمن وخارج حدود إدراك العقول وخارج منطق الأحداث ومدى التوقع وما يحدث في الواقع وما قُدِّرَ أن يكون!

تلك البقعة المباركة تحوم فيها روحين إلى أبدٍ غير معلوم.. فإذا ما اشتاقت إليها أجسادها أمدتها بما يرومها ويكفيها..

ليست ذكرى؛ بل إنه اكتشافنا المهرلما يدور بدواخلنا، لقاءنا الأول بما يعتمل في أرواحنا.. حلمنا إذا ما تجسد حقيقة بعيدة.. غيبنا الذي لا نعرفه وماضينا الذي لم نعشه.. وتاريخ طويل يرشدنا إلى مكان ميلاد روحينا، فهناك قد ولدت أرواحنا يا عزيزي منذ الأزل، وهناك التقينا منذ آلاف السنين قبل أن تكبلنا أجسادنا إليها..

أعلمُ كم من ذكرياتٍ بائدةٍ تحملها جيوب ذاكرتك من هذا المكان.. ولكن تلك البقعة عند نافذة النور هي مكاننا المقدس.. فلا تطأه بقلب غير طاهر ولا تسمح لقلوبٍ غير قلوبنا أن تطأه إخلاصاً لروحينا! فلن يستشعر نوره سوى قلبٍ حمل في جوفه قبساً من ذلك النور..

(31)

عزيزي القريب جداً..

تحيةً طيبةً وبعد،

ألا إن أجنحة الجسد فانية، وأن للروح جناحين إذا ما أهملنا ضمراً حتى تلاشاً، وبقاء السبب يستدعي وجود المسبب! فكيف ينمو جناحان في غياب الحرية! وكيف لمعاني التحليق أن تترادف تحت جناحين قيدهما جسداً لا سبيل له إلا الفناء وقد بدأت رحلة الموت في تمام لحظة الميلاد. تتشابك الطرقات وتتقاطع وتتباعد وتندثر، ويبقى الموت نهايتها جميعاً، فإذا ما خطتها الأقدام فنيينا منهكين، وإذا زحفت أجسادنا عليها فنيينا صاغرين، وإذا ركبنا من الصبر ما يعيننا عليها فنيينا طائعين، وإذا حلقنا فوقها عاليًا فنيينا متحررين.. لكننا في كل الأحوال فانون!

أبشرك يا عزيزي، فإني قد تعلمت الطيران يوم أن نظرت إلى مقلتيك، ورأيت في فضائها الرحب كم أنها صغيرة تلك الدنيا وكم أن وزنها لا يساوي وزن جناح بعوضة، كان ذلك يوم أن سألتك صامتةً فأجابني سكوتك باسترسالٍ طويل لم ينقطع إلى تلك اللحظة!

لحظة أن هبطت إلى الأرض لم أجد جناحي إذ احتجت إليهما.. وإني لم أحزن لذلك، فما حاجتي بجناحي وقد حملتني معك في قلبك! كفاك بي تحليقًا يا عزيزي فإني قد فارقت الدنيا منذ زمن بعيد، فنسيت شكل الأرض وزهدت فيما هو تحت الأرض وما هو فوقها!

كفاك بي تحليقًا، فقد اشتقت إلى الرقود الساكن بين يدي الحقيقة.

(32)

عزيزي القريب البعيد..

تحيةً طيبةً وبعد،

ألم يشغلك يوماً سبب تمسكي بوجودك؟ ألم تتساءل عن قدر
تماسكي أمام مسافات ابتعادك التي لا تنتهي! ألم تفكر عن السبب الكامن
خلف تقبلي إتقانك ممارسة التماهي، رغم معرفتك الجلية بهشاشة قدرتي
على تحمّل الوحدة المغلف بعشق الانعزال!

لربما ظننته ضعفاً مني، أورياً ترجمته انسحاقاً تحت وطأة جنونك!
أورياً اعتقدته تأثير وجودك على كياني الذائب في كأس حضورك الطاغي
رغم كل الاختفاء! لا يا عزيزي.. لم يكن الأمر يوماً كذلك، وإنما هو الصدق!
لا أقصد صدق حديثك فلقد كذبت عليّ مراراً! ولا أقصد صدق
ظنونك فلقد أسأت الظن بي مراراً! ولا أقصد صدق وعودك فلقد خذلني
مراراً! ولا أقصد صدق احتوائك فإنك لم تتردد يوماً في التخلي عني كلما
أوشك الخيط الرفيع على الانقطاع! وإنما قصدت صدق كينونتك
وصدق كل ما يصدر عنك من انفعالات..

فأنت يا عزيزي تمارس المشاعر بكل صدق! حتى أنني ظننت لبرهة
أنك منبع المشاعر كلها، وكأنك مالك مفاتيحها ومخزن أسرارها، وإني
أعشق الصدق كعشقي للسلام، فأجلس حاملَةً بين يدي ابتساماتي حيناً
وأملأ كفيّ بدموعي حيناً لأنثر من هذه ومن تلك ما يليق وصدق المشهد،
بينما أتأمل جمال ما تخفيه انفعالاتك من صدقٍ بالغ صريح يأسرني حتى
النهاية، فلا أجد بلسماً يشفي ما تخلفه قسوة اندفاعك من جراح كبلسم
نقائك..

أتعلم ما ذنبي؟ ذنبي أنني كالملاح على حافة شاطئٍ مهجور لا تزوره
الطيور..

ذنبى أنى أحفل! فى قاعِ من اللامبالاة، واللااكتراث،
واللاشعور..

3 || الفَقْدُ / فصول التعافي

شوق العين للعين .. ييكينا ..
وفي حنين الشوق .. عناق الروح يكفينا ..
فما مَلَكْتُ يدايَ بذكرى من ربوع غدي
وما ذُبُلْتُ من الماضي
وإن ذُبُلْتُ!

فماذا بحق هوانا .. يُيقينا!؟ ..
تسائل القلب اليتيم عن الهوى
أجابته دموعٌ رَجَلْتُ عن مآقينا ..
فهل أَفَلْتُ ألوانه السبعُ؟ .. أم اندمجت جدائله لُتعمينا!؟
هل انفرجت سماء الغيم عن مطرٍ لِيُغرق واديًا من أمانينا!
هل اندثر الربيع قبل فُرْقَتنا؟ أم فَرَّقْتُهُ بين الفصول مآسينا!؟
قد كان لي في قلب عينيك أغنيةً .. نُقَدِّسُهَا
وفي المنديل طهورٌ دمع يُنْقِينَا ..
فهل فارقت أوتارًا إذا تَلَامَسُهَا ابتهل الألم بين يداك ترتيلا!؟
وهل أودعت شاهدنا على قبرٍ .. تَضَرَّعُ أن يوارينا!؟
وهل شَرَدْتَ عن قلبي حنينًا بات به
إن التجأنا إليه .. كان يأويننا!
وهل كملت فاه الشوق نُخْرِسُهُ
من قبل أن يهذي
فَيُرْدِينَا!

إِنْكَارٍ

وكلما هَمَّتْ حُرُوفِي بِالْبُوحِ ..
جَهَّزَ عَلَيْهَا الْحَزْنَ فَأَرَادَهَا قَتِيلَةً!
وكلما فاضت عن جوف صبري، منحها الصمت رحيلا
هناك،
على حافة الشفاه المنفرجة في ذهول!
على ذلك المنحدر أسفل تَيْنِكَ العيينين
حيث مجرى الدمع .. حين يطيب لليل أن يطول ..
حين يغزو ربيع القلب ذبول ..
وكأن كل الحروف تجمعت حيث الشفاه يشقيها الكلام ..
يمنعها الوهن عن الرقود في سلام ..
يجرمها .. حق الاستسلام!
فالقتل سيدي، لا يبتغي رصداً وإصراراً ..
بقدر ما ينطوي رَهَقًا وإقراراً ..
والوهم سيدي،
كلمة!
صاغتها حروف اسمك الدانية ..
وسكوتك المدوّي، وبرودة نظراتك الآنية ..
وحبك سيدي، تاريخٌ قد صاغته الأزمان ..
حروبٌ شارف أبطالها على النسيان ..

حبك، برعم.. لم يُكْتَبْ له تفتح على الأغصان..
فاحب حلم.. من سبعة ألوان!
قوس قزح لا يعرف الأركان..
أشواقٌ ينبت من بذورها الخذلان..
كإرهاصات محاولات النسيان..
كارتعاشات اللحن على أوتار الكمان..
وأنت!

أنت وجع يرقد حياً هاهنا في صدري حيث للقلب مكان..
أنينٌ يبحث عن مهربٍ في قبو كانت نوافذه الجدران..
أنت صرخةٌ
تتردد أصداؤها في وادٍ خالٍ من الآذان..
واستغاثاتٌ.. يرهق بوحها الكتمان.

(33)

عزيزي القريب البعيد..

تحيةً طيبةً وبعد،

لا أعلم يا عزيزي إجابةً لسؤالك الحائر، ولا أعلم لم تطيل النظر

بعيبي..

لا أعلم عمَّ تبحث في دفاتر حياتي وأدراج ذكرياتي، وصناديق الرسائل
المُنهكة الفارغة، لا أعلم لم تهديني زهراتٍ تعلم أنها مقتولة، نحرت على
مرأى ومسمعٍ من السماء! وكتبًا قديمةً مزوعةً، وعصافيرٍ ملونةً خرساء!
دواوينٍ شعرٍ خطتها لحبيبتك الأولى المُنتحرة، وعطرًا برائحة سمرديّة
الانتظار، وبلون ظلال المساء..

لا أعلم.. لم لا أتجاهل كل شيءٍ فأدعي الحياة وأنتهي! لماذا أصدّق ما
تقول! وأصبر على تكذيب عقلي وفطنتي..

لا أعلم ماذا يريد إصرارك من عنادي! ماذا يرومُّ بأسك من دعائم
أغنياتٍ.. ولا أعلم حجم المأساة المُقبلة!

يحدث.. أن تنطفئ الشمس على مرأى ومسمعٍ من النهار، وأن تسكن
الطيور عن شدوها، والفراشات عن تحليقها، وأن تندسل أعناق الزهور
في مراسم احتضار. أن تذبل الأحلام لحظة أن تطالع ملامحها في مرآة
الحقيقة، فتدرك.. أنها لم تكن سوى أوهام.. وينساب الصمت في استرسالٍ
حين يعجز عن النطق الكلام، وتُسجن الدموع في مآقٍ أنهكها القرار من
الملام.. يحدث.. أن تتشابه أصوات الضحكات وطلقات الرصاص، أن
يستحيل النبض ضربًا من تعذيبٍ مُتصلٍ أصابه جنون الخلاص، أن تفقد
الظلال مأواها بشهادة النور، أن تبكي الابتسامات دون أن تزول! أن تسخر
منك خيباتك المتتالية، مُرحبةً برفيقٍ جديدٍ.. حين تصطدم خطاك بجثة
فرحتك المبعوثّة من عالمٍ بعيد.

يحدث.. أن يتوه القلب المُعلَّق في ظلامِ حالكِ من اللاشيء، يمارس
طقوس الانتحار مرارًا دون أن ينال شرف الموت.
فلم يعده الموت.. بشيء!

(34)

عزيزي القريب البعيد..

تحيةً طيبةً وبعد،

كعادتك يا عزيزي..

تستنكر الابتهاج بنور نجمتك البعيدة، تخاف أفولها عن عالمك كل حين.. بل وفي كل لحظة! تودّعها كل يوم وكأنها راحلةً إلى الأبد، وترحل عنها كل يوم وكأنك لن تعود تحت سمائها من جديد! تتمنى لو أن تدرك النهاية قبل أن تباغتك بأوجاعها، وإن كنت لا تدري ما ينتظرك خلفها!

تتمنى لو أن تكتب بيدك السطر الأخير.. وإن كان بخطِ رديء! وتتمنى وقوع النهاية دون انتظارها وإن كانت لن تقع!

ثم تلتفت إلى نجمتك لتجدها في كل مرة.. ماثلةً أمامك لا تمل انتظارك ولا تستسلم لغيابك، ولا تزهد النظر إليك!

قد نفرّم من ذكرياتنا وآلامنا وأحزاننا بذكرياتٍ وآلامٍ وأحزانٍ جديدة، قد ننتحر غرقاً في واقعنا المتراكم عبر السنين يأساً من حياةٍ لا تعرف سبيلاً إلينا! قد نكذب على أنفسنا ونوهم عقولنا ونقتل قلوبنا خوفاً من الألم.. أو من العجز!!

ولكن إلى أين المفرّ من أرواحنا! إلى أين المفرّ؟ والأرواح لا ترحل ولا تكذب.. ولا تنسى!!

أدرك أن النجوم بعيدة، في كل أحوالها هي بعيدة وستظل في بعدها أيًا كانت نهايتها، لن تهبط يوماً بين كفوف يديك أمام عينيك! كمعجزة إعادة ميلادها ومعجزة إعادة ميلادك ومعجزة لقائكما الذي لم يكتمل!

لا ترسل عقلك للغد يتخبط في ظلام الغيب لا يبصر منه شيئاً سوى أشباح الماضي فيظنها متوهماً آلام المستقبل! ثم يعود إليك بها تاركاً إيّاها

بين يدي حاضرك لتزرعها بطنونك، وترعاها بيأسك، فتنبت الحطام ذات
يوم على يديك أنت ثم تدعوها قدراً! وإنها لخطيئةٌ ترتكها في حق نفسك
وذنْبٌ ترتكبه في حق نجمتك ما من توبةٍ تغفره لك!

أنظر بين يديك ستجد نورها منعكساً على راحتك وإنه لحقّ واقع،
فالنجوم لا تنطفئ يا عزيزي..

وإن في عذابها لنعيمًا مقيمًا.. فقط لأنك باقٍ هناك لا تملُّ النظر إليها..
حتى يحين موعد الزوال..

(35)

عزيزي القريب البعيد..

تحيةً طيبةً وبعد،

أسئلةٌ عديدةٌ تتردد بكهف عقلي المعزول عن ذلك العالم المتداعي من حولي، ككيف أن أنتهي إليك وقد كان مُقدّرًا أن تكون نائيًا بعيدًا حتى عن الخيال؟ كيف يتسنى لي أن أقرأ أفكارك، تلك الذابلة حد الإنهاك وتلك الجافة الجارحة حد الهلاك رغم كل البُعد! كيف تسري مشاعرك المتناقضة بأوردتي فلا تكف عن الطرق على جدران قلبي!

كيف أبصر حركاتك وسكونك رغم كل الغياب، كيف تنتابني أنفاس تهتك الأهدب وأصداء ضحكاتك القصيرة المقعرة من كل صوبٍ واتجاه.. لماذا أرى عينيك الشاردتين خلف كل الأشياء.. وابتسامتك، تلك التي علقتهما ونسيتهما منذ زمن على شفطيك حتى انحنت شفطاك إرهاقًا على إثر حملها..

لماذا قدر لقلبي أن يتبناك وكأنك طفله المدلل.. وتقيدك روحي إلى أحلامي بخيوطٍ من نور! وتنبأ ذاكرتي من كل الجراح الممهورة بتوقيعك؟! لماذا يهفو إليك انتباهي كل حين بينما أنا في طريقي إلى الزوال! ولماذا أتذكر تفاصيلك الصغيرة إن كانت ذاكرتك قد أعدتني وجبةً دسمةً ليلتهمها النسيان!

لماذا اصطدمت روحي بروحك في هذا الملكوت الواسع الغريق في اللانهائية.. لنفترق يا عزيزي! لنفترق!؟

كيف يمكن لحقيقةٍ أن تغدو سرًا وللصدق أن يغدو هلاوسًا! كيف للبحر أن يجف ليغدو صحراءً قاحلة.. وكيف للفراشات أن تستحيل

ديدأناً تموت بعد أن تلتهم أوراق الأشجار الوارفة! كيف؟ ولماذا!!؟
 أربما أنه إحدى كوايبسي الطويلة، فكأنني لا أبصر سوى الخيالات
 واللاموجودات، لا أنصت إلا إلى ما تبقى من خشونة صوتك في ذاكرتي، ولا
 يقف لسان حالي عن الحديث إليك. أرويك حيناً.. وأقطفك حيناً، أمزقك
 حيناً.. وأبكبك حيناً كثيراً. رويدك يا هلاكي الجميل، فقد أنهكني التعب
 وما عدت أقوى على العدو لمسافة قدمٍ أبعد!

كلما نظرت خلفي أفتفي آثار خطواتي لأعود من حيث أتيت أضعفت
 كل الاتجاهات وبدأت رحلة العدو من جديد، لم أتوقف عن العدو لحظة
 ولكن إلى أين؟ حقاً لم أعد أذكر إن كنت أعود هرباً من شيء ما قد نسيته
 أم أنني أعدو خلف شيء ما قد نسيته! أرى الشمس تحرق انتظاري دون أثرٍ
 لظلي، وأرى السماء ترتدي السواد حداً دون أثرٍ للنجوم، حتى صورتي
 بمرآتي ما عادت تشبهني وكأنها قد أقسمت على القصاص مني.. بتغيير
 ملامحي!

فراعٌ.. لا بداية له ولا نهاية، وكأنك طويت الكون في جيبك الصغير قبل
 أن تتلاشى ببطءٍ شديدٍ أمام عيني، ببطءٍ يوقظُ بي أملاً كاذباً بأنك ما زلت
 هناك.. بل هنا! ببطءٍ أربكني فما عدتُ أدري إن كنت تتلاشى أم أنك تتبدى
 لناظري! معلقة أنا في برزخٍ متناهٍ من كل شيء.. كل شيء! أدركني التعب
 وفقدت خارطة الطريق وما زلت بعد كل عدوي واقفةً في ذات المكان، ذات
 البقعة البعيدة.. ذلك اللاشيء القابع في متاهات الفراغ. حتى الحزن ما
 عاد يكفي ليعبث بي الإحساس بالحياة! لماذا انصهرنا حد الذوبان إن كانت
 تلك هي النهاية؟

وكيف لدراتي بعد تحللها أن تدرك طريقها إلى تكويني من جديد!
 أيُّ بدايةٍ تلك التي يتحدثون عنها بعد النهايات! وبعض النهايات لا
 يصلح لها أن تكون شيئاً سوى الموت البطيء.

ثُمَّ نُوَلِّدُ مِنْ جَدِيدٍ

أَحَقًّا تِلْكَ هِيَ النِّهَايَةُ؟!

(36)

عزيزي القريب البعيد..

تحيةً طيبةً وبعد،

أحياناً، تتوه منّا تفاصيل الأشياء للدرجة التي لا نستطيع معها استعادة القدرة على الوقوف، نبحث حولنا كالمهوسين عن نقطة ارتكاز أخيرة تساعدنا على استعادة بعض الاتزان فلا نجد ما نستند عليه. نغرق في بحرٍ أمواجه المتلاطمة هي علامات استفهامٍ يعذبنا زمن مصارعتهما الذي لا ينقضي، ثم لا يقودنا صراعنا هذا سوى إلى المزيد والمزيد من الجنون! فكيف لنا أن نكمل طريقاً تعثرت به خطواتنا دون أن ندرك آلية السقوط؟ كيف لنا أن نعاود السير بكل ذلك الثبات في أكثر الأوقات حلقة وأشدّها تميماً!

كذبة صغيرة قد تُبني عليها حياةٌ بأكملها نلاحق فيها السراب.. وكذبة صغيرة نتعثر بها فينهار كل شيء.. كل شيء، وكأنه يوماً لم يكن!

أُعقل أن تصل مشاعر الوحدة بالإنسان إلى أن يرافق ظلاً مجهولاً لكي يعكس له من يكون! أيعقل أن يصل القنوط بالإنسان لأن يلجأ إلى سرابٍ يتعلق بوجوده علّه يستدل على نفسه! أتحدث عن الوحدة القاتلة، ليست تلك الناجمة عن وحشة المكان وإنما عن وحشة النفس! عندما تسكن الأشباح أجسادنا تبحث لها عن مستقر، فتبتدأ أطراف الحياة عن أرواحنا لتتحول إلى جثة مسجاة بجانب كل شيء يتخلل يومنا!

أحسدك يا عزيزي على قدرتك البارعة في استئصال الذكريات، فإنك تُتقن النسيان إتقانك الابتسام في وجه القهر، وإتقانك السخرية في أشد لحظات الحزن... وإتقانك القتل في أقوى لحظات العشق..

أؤمن بأن ما نعيش فيه من جحيم هو من صنع عقولنا، كما أؤمن بأن لكل منا ما يختار لأن يحيا به من جحيم أملين فيه أن يشعرونا ببعض الراحة.

ثُمَّ نُوَلِّدُ مِنْ جَدِيدٍ _____

نحن نختار جحيماً بأيدينا، نختار جحيماً يمنحنا فرصة للاستسلام،
ربما كان جحيماً هو الإنكار، وربما كان جحيماً هو الاستنكار، وربما لم
يصادف أيّ منّا ما اختاره لذاته من جحيماً بعد ولم يكن كل ذلك سوى
تمهيدٍ ومُسْتَهْل!

(37)

عزيزي القريب البعيد..

تحيةً طيبةً وبعد،

في حيرة أنا من أمري يا عزيزي، أيهما أقوى وأطغى.. أتراه الحب أم النسيان؟! هل يمحي النسيان ذلك النبض الحي فيحيله إلى العدم! أم يجرف الحب محاولات دفن ما قد كان؟!

في حيرة أنا من أمري.. فكما أبصرت نور الحب، أبصرت ممحاة النسيان السوداء تتجلى كلما برق الحب في أفق قلب ما. رجالٌ هو الحب يا عزيزي.. أعلم أنه رجال! لكم من نبضٍ تلتته أوجاع فراق، ولكم من فراقٍ تداوت أوجاعه بنبضٍ جديد! أخبرني، لم تُراني قد أبقى في ذاكرة قلبٍ لم يبق على أحدٍ ممن سكنه قبلي! وربما ممن يأتي بعدي..

لا أتعجب أن يلفظني سُكناي! فحتى الأوطان تلفظ أبناءها! حتى البحار تلفظ أحشائها، حتى الأرواح تغادر أجسادها. فماذا قد يبقيني إذًا؟! لم لا يلفظني الأمان مبررًا ذلك بألف وهمٍ وهم!

كل الكلمات والوعود تتبخر.. لا يبقى بقعر إناء الحب منها سوى الذكريات! وقد تعبت أصنع معك الذكريات، حتى نسيتهما جميعًا وما عدت أتذكر سوى أنني أشباح ذكرى قادمة.

أظننا قد نلتقي من جديد؟ أم تُرانا قد التقينا لنصنع فرأقا يليق بكليتنا؟ فرأقا من ذلك النوع الذي يُحكِم إغلاق الأبواب خلفه، يوصدها بأقفالٍ من حزنٍ مكين..

لا أدري يا عزيزي.. أعلم أن للرحيل خطىً تسبقها آثارها، ولكي أعلم أيضًا أن لا سلطة للرحيل في حضور قلبٍ ابتلعه الخشوع لحظة التوحد، لا سلطة للرحيل على من انتهت خطواته عند نقطة اللارجوع.. ولكنك تصر

على نفسك بالكذب ثم تدّعي تمام الصدق، تدفن رأسك بالرمال ثم تتباهى بالمواجهة، تقيّد ذاتك بأوهامك ثم تغني للحرية!

صديقاً، لم أعد أتحمّل كتابة تلك الرسائل! لو كانت صفحاتٍ خاليةً من الروح لمزقتها جميعاً وحررتها من برائن أفكارى، بل كنت أطلقتها للرياح تحمّلها إلى حيث تشاء.. ولكنك نثرتها نجومًا في الفضاء إلى جانب تلك المنثورة منذ آلاف السنين، تلك الساكنة في السماء هي رسائل كل المحبين قبل أن يزور قلوبهم النسيان! قبل أن تهجرهم الأماكن ويغفل عنهم الزمان..

هل نبقى بعد الرحيل؟ أم تذرونا رياح الفراق في يومٍ عاصفٍ، أو ربما يومٍ هادئٍ شديد السكون، تمامًا كما تغادر الروح المطمئنةً الجسد.. هادئةً، كجناحٍ عصفورٍ استسلم للنوم في ليلةٍ ساكنة، كبتلات زهرة لم تتفتح على ذلك العالم بعد! كعينيك المغمضتين في سكون، ككلماتك الراقدة خلف كل الذكريات، كصمتك حين تبدأ قصة الغياب!

كلحظة امتثالٍ لكل الأشياء المفقودة، حيث كان يبدو لنا النقصان جمالاً..

وكنا نبدو للنقصان اكتمالاً!

(38)

عزيزي البعيد القريب..

تحيةً طيبةً وبعد،

وصلتني رسائلك الفارغة؛ فضضتها وقرأت ما دونته فيها من صممتِ

مديدا!

وجدت بداخلها حبات القمح جميعها.. تلك التي كنت قد أهديتها لك يوماً لتغرسها في أرضك الموحشة ربما بُعثت من الموت، ملمتها بين كفي واحترت! أزرعها في إصيص الوحدة فتطرح حضورك طيقاً ربما! أم في بلورٍ من جليد فيعثرها الخلود تماماً كما تعترني قلبي حُنى الحنين!

احترت هل ألممها مع ما تبقى من كلماتٍ عالقةٍ لم تُنطق وعبرَاتٍ مارقةٍ لم تنحدر؟ هل أزين بها جفاءك الأنيق؟ أم هل أبعثرها خلفي في طريق وحدتي.. فتتبع بها الأثر!

احترت.. هل أرتبها على الصفحات الخالية بين يدي فلربما نطقتُ عنك؟ أم هل أطوي رسائلك، وأطوي بداخلها حبات قمحك، وأطوي صفحات حياتي خلفهما معاً، عليهم جميعاً عني يرحلون..

رسائلك الفارغة، وصلتني مرتعشة كما ارتعاش يديك حين وضعتها على باب انتظاري، كارتعاش صوتك في الوداع الذي لم يكن! كارتعاش أحبال أفكارنا يوم أن ذكرتك فذكرتني.. وارتعاش روحينا يوم أن قرأتك فقرأتني..

رسائلك الفارغة؛ تفوقت في صمتها على غيابك..

ليت عيني تحتضن عينيك غفلة من زمن فتنبئاني بما عجزت عن أن تُنبئني به..

رسائلك.. الفارغة!

(39)

عزيزي البعيد القريب..

تحيةً طيبةً وبعد،

لكم تمنيت أن أدفئ يديك في كفوف يدي المرتعشة بردًا.. أو أن أضم خوفك بصدري المرتجف رعبًا! لكم تمنيت أن تستقبل ابتساماتي فتشرق في قلبك لهفتي! فلکم يتمنى مفتقد الشيء أن يعطيه فكيف وإن وجد من يستحق عطاءه!

مكثت أستحث بزوغ فجر الأمل كي لا تفتح عينك على ظلام اليأس، وتأملت شرود روحك فرأيتها في عينيك تروم فئات الفرح..

في تلك المروج الخضراء حيث التقت روحك روحي، وفي صفاء السماء حيث خاطب جنونك جموحي، وبين أمواج البحر حين سكنت أماننا فتحدثت أرواحنا بما خفته قلوبنا من أسرار، لنبصر بنا انعكاسات أرواحنا، ويفقد محيانا غياب ابتساماتنا، ونعثر في برائن أنفسنا على كل شيء جميل..

فلماذا الفراق على إثر الرحيل؟! ألم تحمل عيناك لك من قلبي الدليل؟ أبحث عن الذكرى فوقفت بين يديك كالطفل العليل؟ هل كذبت أوهامك الصدق.. أم صدقت الوهم الهزيل! هل زار الخوف ربوع قلبك؟ أم ملّ القلب من وطني الأسيل؟ وبعد الفراق.. تجمد الزمان عند عينيك.. فأصبح الوقت يمضي كالذليل، وأصبح الليل طويلًا يجهب ميلاد النهار.. وزالت الألوان من صفحة الدنيا، وهنت الأشكال وتبخرت العطور.. تساوت الكلمات وتشابهت الفصول، فلماذا الفراق يا عزيزي أما كان يكفيننا ألم الرحيل؟!

(40)

عزيزي البعيد القريب..

تحيةً طيبةً وبعد،

هو الاكتشاف إذاً يا عزيزي.. لكم يصعب على المرء اكتشاف نفسه في العزلة، كم يصعب عليه إدراك ما لم يجد فرصة للتعبه في داخله دون أن يتجسد له ما تعبته، وكم هو بارعٌ ذلك الذي يستطيع اكتشافنا.. أعني، اكتشاف جوهرنا المدفون، وإن الذي أروع من الاكتشاف حقًا هو انتشالنا من قبور ذواتنا وتحريرنا من مكبلاتنا حتى تلك التي لا نراها، فننتفح كما تنفتح الزهور، ونتمدد كما يتمدد الكون دافعاً النهايات إلى أبعد مدى..

ماذا يتوجب علينا أن نفعل حين نُدرِكُ بعد فوات الأوان يا ترى؟! أهمل نبقي بقرب من برع في اكتشافنا وتحريرنا ما بقي لنا من عمر نتفاني في تقديم أسباب الشكر والتعبير عن امتناننا اللامتناهي غير آبهين بأي شيء آخر؟ أم هل نرحل إلى حيث تستمر بنا الحياة بروح أصليةٍ نمت لها جذورًا تشدها إلى وعي صاحب إدراك لا محدود لمن نكون وما نريد! أم هل نعيد دفن ما اكتشفناه في ذواتنا وكأنه غريبٌ عنا لا نعرفه؟!

هل يعقل لإنسان أن يخلف ذاته وراءه عند الرحيل؟ أو هل لتلك الذات صورة حيةً في غياب مكتشفها! أو هل لها معنىً في غياب مقدرها ووازنها!! لا يكف عقلي عن طرح الأسئلة يا عزيزي.. دون انتظار إجابات..

وإني أعلم أنني أصيبك بتصدع بالغ في نفسك حين ألح عليك بأسئلة معقدة تحتمل كل الإجابات، أسئلةً صيغت بلغةٍ كانت قاعدتها هي اعتبار كل شيء.. ثم لا نجد للإجابة عنها تعبيرًا أدق أو أبلغ من الصمت.. وربما الهروب!

ذلك الصمت الممتد بيننا إلى ما لا نهاية حرفية.. لا ترى على امتداده أي شيء.. وإن كان سرابًا!

ذلك الصمت الذي أصبح مصدرًا لآلام روجي الهاربة من رداها
الثقيل، فبعد كل شوقي هذا، لا أجد سوى أن يقف الصمت حارسًا على
عتبات بوجي طامحةً لأن يرافقني ظلك للأبد، فأني من أحلامي مبتورةً
بحقيقة فراقتك، وأني من أشواقي مقيدٌ بقسوة أوهامك.. فَأَسْرِفِي نَفْسِي
مَا أَصَابَهَا مِنْ يُتَمِّمِ وَأَخْطُو فِي حَيَاتِي.. أَنَا فِق ذِكْرِيَاتِي!

(41)

عزيزي البعيد..

تحيةً طيبةً وبعد،

هي لعنة أن تدرك التفاصيل وتحفظها بداخلك منذ الصغر، لعنة حقيقية لمن تتحول نفسه إلى عدسة مكبرة تكشف عن كل ما اختبأ ثم تراكمه في ذاكرة دائمة لا يحررها حتى قلم كاتب!

وإني أتساءل كيف لبشرٍ أن يتحمل زحام كل تلك التفاصيل بذاكرته في غياب الكتابة أو الرسم أو العزف! لا أدري حقاً، من حسن حظي أنني أتقهم جميعاً.. ومن سوء حظي أنهم لا يكفونني للتحرر من تلك التفاصيل. لا أجد فارقاً بين أهوال الحرب وأهوال الفقد بأوجهه المتعددة، فكلاهما - أعني الفقد والحرب - يحملان ذات العذابات..

كلاهما يحمل القتال في تفاصيله.. كلاهما يُكَلِّل بهزيمة إحدى الطرفين.. وكلاهما يجعلنا نتلاشى بالأم وببطء! ولولا الأمل المختبئ، ذلك الأمل الذي لا يُعرف له مصدرٌ منطقيٌّ واحدٌ في كل هذا الركام من اليأس، لزادت آلام تلاشنا لأضعافٍ لا حدود لها..

نحن لا نكتب الرسائل لتُقرأ! فكم من رسائلٍ كُتبت ومُزقت، وكم من رسائلٍ أُحرقت قبل أن تُرسل، وكم منها تراكمت بعد أن مات كاتبها دون أن يعلم عن وجودها أحد!

نحن لا نكتب الرسائل لتُقرأ!

ولكنها رغبتنا الملحة في أن يكون لنا وجود!

غَضَبٌ

ضاع الطريق
تحت أقدام التميّ .. حين اكتفى
حتى اختفى كل الكلام ..
كل الوعود السائرة كما النيام ..
أُسميتَ قبيري يا مهجّةً كانت لقلبي منبراً ودليل ..
أُسميتَ كانفراط العقد حول جيدِ المستحيل ..
قل لي .. لماذا قتلتنني؟
من قبل أن يأتي أوان الرحيل ..
أُسميتَ لحدّاً يسكن تحت قبلة قلبي المذهول
أُقلتِ يدي! بل حرر الروح الحبيسة خلف جدران الكلام ..
حلو الكلام ..
ذاك الذي .. ألقيته على مسامع فطرتي حين التزام ..
ذاك الذي أقحمته في خلوتي
أُقلتِ يدي!
فالجود بالألم .. قد فاق جودك بالرحيل ..
والقسوة موزونة الأطراف .. قافيةً، يتغنى بها القلب العليل ..
يكفييني كل ألوان العذاب ..
يكفييني فقدان معاني العتاب ..
لا تندهش .. ففبك تقلدتُ السكوت في مراسم الإذعان ..

وفيك.. تمزق القلب الكسير، حين تجرع حبك إكسير هوان..
تكسّر.. كما الآنية على مرمى السفر الطويل
فُتاتًا تذروه الرياح..
تنثره الذاكرة المثقوبة.. في ربوع النسيان إذا ما لاح..
أنا.. أبتسم!
أنا أبتسم للحزن لو تعلم.. كم يستحي من ثغري الابتسام..
قد غاب عنيّ مما يعدُّون ألف ألف عام..
فلقد تعلمتُ البكاء الأخرس يحفُّه الصمت الرتيب..
فلكم أمسيتُ أكره صوت ذا النحيب..
أتقنتُ على يديك لعبة الإحجام..
وامتناع الدمع عن الكلام..
هاك ما أعطيتني!
بعض انكسار..
أكاذيب أملٍ وانتظار..
وقد اكتفيت!
ولقد شربتُ من شطآن بجرك الأجاج حتى ارتويت..
أفلت يدي.. فلقد فويت!
قد رحل ظلي منذ شروق صباحك البعيد..
قد رحل قبل بزوغ فجرٍ جديد..
أنت الذي.. آمنتُ به.. فأنكر وادّعى!
وكفرتَ بي، وأذقتني.. ألوان القهر باقتدار.

(42)

عزيزي البعيد جداً..

تحيةً طيبةً وبعد،

ليس الحب في أن تسلط الضوء على ضعف من تحب، بل في أن تكون قوته حين الضعف..

ليس الحب في أن تمزقه حين لا يجد أجنحته، بل في أن تهبه براح السماء هدية حين لا يقوى على الطيران..

هوليس في أن ترمي به في عرض البحر ليتعلم العوم، بل في أن تحمله بقلبك لتغوصاً معاً..

هوليس في أن تختبر قوته، بل في أن تطمئن خوفه.. ليس في أن تشوّهه حين لا تملك تفسيراً لما يحدث من حولك، بل في أن تغسل نفسه عما علق بها من أسباب الوجد.. أن تمد له يدك تنتشله من الغرق قبل أن يلتهمه الجنون، لا أن يلوح له كبرياؤك مودعاً بتعالٍ وغرور! أن تقف بجانبه على ذات الدفة وفي ذات اللحظة، لا أن تقف في مرماه على تبتك العالية غارقاً بماضي لك وحدك هو بريء منه!

أن تضمه في براح عناقك لتملاً فراغات كل ما تأكل به من ألوان وما سقط عنه من ألحان، وإن لاحت في الأفق آيات الحرمان، وإن كان الرحيل هو السبيل الأخير للبقاء..

الحب يا عزيزي لا يعرف الإنكار أو التعذيب أو تلون الكلام، الحب لا يميز بين قريب وبعيد، ولا يميز بين بكاءٍ وابتسام.. الحب أرقى من أن يُدان أو أن يُتهم بالخذلان!

الحب يا عزيزي ليس تعريفاً نسعى لإتقانه! بل إنه حالة من القدسية كان على نفسك إذا ما صادفته أن تغتسل بغرفةٍ من نوره، وكان على عقلك

أن يتوضأ بزفيرٍ من أنفاسه..

ولكن يبدو أنك صادفت الحب في طريقٍ وعر، شغلتك عنه نفسك
بتأمين خطاك، وشغلك عنه عقلك بترتيب المقدمات واستخلاص
النهايات.. وشغلتك عنه أنك بعصب عيني بصيرتك.

(43)

عزيزي البعيد جداً..

تحيةً طيبةً وبعد،

أكان عليّ أن أمنحك أكثر، كأن أعطيك ما لا أملك! أو أن أعدك بما
لن أفعل؟

أكان عليّ أن أمنح الدفء للأغطية الثقيلة وأن أهب البرد لمكعبات
الثلج المنصهرة إلى زوال؟

أكان عليّ أن أسير الطريق اللانهائي، بخفين من ورق! أو ربما كان عليّ
ارتداء قلبٍ من شمعٍ منصهر أو من حديدٍ صديء؟

بل كان عليّ أن أضحك كثيراً.. حتى تخجل نواجذي عريها أمام المارة،
وأن أحرق الدمع قبل أن ينزلق!

كان عليّ أن أتكى على الجرح الغائر.. لأتذكر أن أتذكر، والتحديد
بمراة الحقيقة.. لكي أنسى أن أنسى..

كان عليّ التمسُّك بحقي في قتلك! قبل العفوبلحظات، تلك اللحظات
الفاصلة بين الحنين والكبرياء.. بين الصفح والانتقام بين العرفان..
والخذلان.

كان عليّ أن أغلق باب النسيم بيدي وإن اشتد الصيف وتصعب
القلب حزناً.. وإن بكى ألباً.. حتى وإن احترق!

كان عليّ أن أكتبك يا وجعي مراراً، بعد أن أمحي كلماتي كلما نضج
نفضها على صفحات حياتي.. كلما تفتحت براعمها على بارقة صدقٍ
بالطريق، كان عليّ أن أمحي آثارها لتحتل حروفها كلماتٍ جديدة تنسجها
أوهامي، فإذا ما أنهكت الأوهام حكياً.. محوتها لأكتبك من جديد..

ولكني كتبتك مرةً واحدة.. واكتفت بك الحروف وهماً دون أن تُفسح للحقيقة طريق. كتبتك حين صادفتك أحلامي في خيالٍ بائس، عندما لامس نسيمك صحراء قلبي حيث تجسد الانتظار، حين احتل وجودك كياني المترقب في صمت. كالدفع.. لاذ إليك شتاء قلبي دون أن يجرب في سيفك الجحيم، كالماء.. هرع إليك عطش حنيني قبل أن يغرق في أعماق هجرك الممتد كالسديم.

نطقتُ حروف اسمك بلغةٍ بالكاد تهجأها قلبي، ألا ليت أدركتها قراطيسي وأوراقي قبل أن يُدركها جحيم العدم.

ملكنتي بين أصبعي ذاكرتك حتى نسيْتُ من أكون.. ونسيْتُ من تكون، استأجرتَ النسيان أنيساً يراوغ في عقلك ذكرياتٍ مضت، فيحيلي دميةً بين يديك أو اسمًا يزين دفتر ذكرياتك، بل ذكرى محاها النسيان قبل أن تكون، كان عليّ أن أكتبك يا وجعي مرارًا حتى تفقد معنك في قلبي، قبل أن يفرسني الحزن المدجج بالشجن، قبل أن يطبع الزمن بصمته وصبمةً على جبين قلبي، تطالعها مرآتي كلما نظرتُ إليها باحثةً عن نفسي.. تلك التي ذهبت في إثر حيلك دون أملٍ في الرجوع.

(44)

عزيزي البعيد جدًا..

تحيةً طيبةً وبعد،

تأهًا أنتَ وسط أمواج الحياة المتلاطمة.. غارقًا في بحر الواقع الهائج، عالقًا بين أجزاءٍ أُحجِبةٍ بالية من الأوهام والظنون.. تصنع منها لوحةً مشوهةً هي كل ما تؤمن به!

يوم أن ذابت قطعة سكرٍ على طرف لسانك، تذكرتَ مذاق مرارة الماضي البعيد وإذا بك تريق ألوانه الباهتة على كل ما هو بين يديك مما حمل معيَ ومما لم يحمل! يوم أن نبض قلبك خافقًا، استدعيتَ الماضي بكل وعكات الألم الغائرة بسويدائه.. ثم أقسمت على فضيلة الصدق بأنها ليست سوى معصية كذب!

كم أنك وهمٌ جميل تجسّد لي لشدّ ما اشتقتُ لوجوده، كذبة كذبتها على نفسي لحظة أن فقدتُ صبري! وكم نفقد إيماننا بما نحارب من أجله لحظة أن يتلاشى فلا يبقى له في الوجود من شيء سوى العدم!

إني إذا ما ابتهجتُ أعلنتُ عن فرحتي بأعلى صوتي، وإذا ما بكيتُ سال دمي بحرقَةٍ يبتلعني لهيب نيرانها، وإذا ما غضبت فما من شيء يمكن له أن يمنع أصداء صراخي.. فأنا إذا ما زارني شعورٌ عزمْتُ على أن أحياء لأقصى مدى! عزمْتُ على أن أكون تلك الطفلة في داخلي.. عزمْتُ على ممارسة الصدق إلى منتهاه! ولا أظنني قد تجرأت لأن أحرر تلك الطفلة بكامل فطرتها كما تحرّرت بين يديك من دون خوفٍ أورية، فكان منك أن كذبتُها!

فهل تعلم يا عزيزي كيف يكون شعور الأطفال عندما نُكذّب صدقهم الصريح حد الشفافية؟ يشعرون بالقهر القاتل..

فهو قهراً لأنه ظلّم يكبر حجمه باطرادٍ لا يتحمّله قلب طفل بريء..
وهو قاتلٌ لأنهم لا يدركون له من رادعٍ ولا يجدون لمحو وصمته من سبيل!
يصيهم البكم وتذهل نظراتهم وتنحدر دموعهم في صمّتٍ كئيب..
لن ينفصل الخير عن الشر دون أن نقرر نحن ذلك! ولكن كيف لنا أن
نميز الشعرة الفارقة بينهما دون دليلٍ من الروح!
وما الفائدة من المعرفة إذا لن يُتاح لنا الرجوعُ إلى الماضي لنُصلح كل
ما تحطّم بكل قسوة..
أوربما أنقذه أيُّ منّا قبل أن يستحلّه الحُطام مسكناً دائماً له!

(45)

عزيزي البعيد جداً..

تحيةً طيبةً وبعد،

إن خيانة الجسد للجسد دونية.. وخيانة العقل للعقل خذلان،
وخيانة القلب للقلب ألم.. وخيانة الروح للروح عدم!

والعدم.. هو مسكن حفاة الروح على دروب الحب الوعرة.

فلا موتٌ لما كُتِبَ عليه الخلود.. لا موتٌ للروح حتى وإن انشقت تنزف
في صمتٍ طويل، لا موت على سفوح جبال المستحيل! ليس هناك سوى
العدم.. وما أقساه ذلك العدم! مسكني البارد حين لا يكون لي من وجود،
حين لا يكون لي ظلًا حيث اخترت أن أجود، حين أكون أنا الظلال، وأكون
أنا السراب، وأكون أنا الانعكاس لصورةٍ غريبة عني امتلأت بها نفسك
فأعمتني، ثم فاضت من بين كفيك كالبخار المندفع في جنون! يملكك
دفته، ولا تملك منه شيئاً سوى الاحتراق..

وكأنني نومك الهادئ.. إذا ما أغشاك انشغلت عنه بأحلامك وتركته
مستيقظاً ير اقبك في سكون..

وكأنني مصباحك السحري.. إذا ما فركته انشغلت عنه بجنيته وتركته
ليصدأ وحيداً في هدوء.

وكأنني.. بردُ الشتاء.. وأروقة الفناء.. وحيود الدروب!

(46)

عزيزي البعيد جداً..

تحيةً طيبةً وبعد،

إن أسمى درجات الفقد هو ذلك المسترخف خلف ظلال البقاء!

مجرد غلافٍ لامعٍ مبهج.. لفراغٍ قاتمٍ سحيقٍ لا قرارٍ لظلمته، قد يصلح لإغراء الساذجين، قد يصلح غذاءً يسدُّ جوع الجائعين أو نهم المحرومين، قد يصلح مُخدراً يسكن ألم الضائعين، أو دليلاً يضيء دروب التائهين، ولكنه حتماً لا يليق بمن آمن بك وعاش على أملٍ وإن كان أملاً لقيطاً لا أهل له، أملاً وُلد من العدم لا تُفسر وجوده فلسفةً ولا يستدل على منبعه منطقياً! فكثيراً ما تتوه الآمال وتختبئ في ثنايا أحلامنا، كثيراً ما ترتدي زي أوها منا، تغرينا في دلالها المُستبد..

إن من وهب قلبه لا يقبل ببقاء المحسنين تعطفًا وشفقة! لا يقبل إلا أن تؤمن به قدر إيمانه بك، فإن كفرت به.. فما قيمة إحسان تسديه لمن لا وجود له بقلبك!

فلتقدم الإحسان لمن ينتظر منك إحساناً، ولتترك من كفرت به ليتولاه ربه في سلام..

فذلك لكلاكما.. أكرم.

(47)

عزيزي البعيد جداً..

تحيةً طيبةً وبعد،

في لحظة عابرة ككل اللحظات المارقة من حولي.. ارتج عالمي بقوة
تزلزل لها كياني بما يكفي لأن أفقد إيماني بنفسي وبكل ما سولته لي بأنه
حقائق من حولي. كذبتُ على ذاتي، وإن الكذب على الذات لو تعلم يا
عزيزي لهو أضلّ أشكال الكذب، ففيه تُبتلع كل قوى الروح لتتلاشى.. لا
يبقى منّا سوى أنا البائسة تندفع خلف أوهاهما لتوحي لنا بكل ما تلهفتُ
يوماً أن تراوغ به عقولنا..

كذبة أنت يا عزيزي.. كذبة كبيرة ابتدعها خيالي.. كذبة أراقت كل
معاني الصدق ومزقت كل الوعود الكاذبة..

فكرة وقفت تستجدي الميلاد من عقلي المنهك وروحي الممزقة.. فكرة
اشتعلت في ظلمة الشرود، حطمت باب الواقع وتجسدت بوحشية حتى
ما عاد بيدي أن أمحها كما أمحي شخوص قصصي ورواياتي إلى زوال
كيفما أصنعهم من العدم! لا وجود لك يا عزيزي سوى بخيالي المُصاب بك.
فكرة صغيرة قد تُبني عليها حياة بأكملها نلاحق فيها السراب..
باكتشاف ضلالها ينهار كل شيء وكأننا يوماً لم نكن! ولكم يؤلمني الرجوع
إلى ما قبل ميلاد الفكرة.. فالآلام مخاض ولادتها ما زال يئن في أحشاء عقلي،
يذكرني بأهم دروس الحياة وأقدمها، أن البدايات لا تقودنا إلى أي شيء!
فكرة جميلة أنت يا عزيزي.. بل إنك أجمل أفكاري على الإطلاق..
ولكن كفاني من الوهم حكايات!

ليتني أملك من القوة ما يكفي لأن أهديك ما تتمناه من وداع يليق
بك، ما يكفي لأن أحررك من خيالي، ما يكفي لأن أخط لك رسالةً أخيرة.

ليتي أملك رفاهية طمس الذكريات، أو محو نكهة المرة الأولى لكل شيء!
أمها العزيز.. البعيد حد التلاشي..
القريب قُرب السراب!

(48)

عزيزي البعيد جداً..

تحيةً طيبةً وبعد،

بينما كنت أفتش بين أوراق القديمة المبعثرة ورسائل التائهة المعلقة،
وبكاءاتي وضحكاتي في زمنٍ ما.. وجدتُ سؤالاً قد سقط مني سهواً دون أن
أجيب عنه.. سؤالاً عن معنى القسوة!

وقد بُهتُ للحظات، فكيف لهذا السؤال أن يُترك دون إجابةٍ منذ
حين! رغم إدراكي معنى القسوة.. اختبرت معناها وتقلبتُ في فصولها..
أدركها بأفكاري الساخرة وبذكرياتي المألحة.. وبأحلامي الفتية المقتولة
وتلك المنتحرة.. أدركها بأشلاء قلبي الممزقة وأطراف روجي العالقة بين
السماء والسماء!

أدركه بأشباحي التي تسكن جسدي لا تنتوي عنه الرحيل..
القسوة.. هي تلك الكلمات التي نسطرها.. ولم يقرأها من كُتبت لأجله!
هي تلك الابتسامات المرتسمة على شفاه مرتعشة تهددها بالقتل!
القسوة هي الخذلان حين يتجرأ.. الذكرى حين تثور.. الصمت المطبق
أمام نفسي تتعذب للقاء معانيها..

هي التجاهل القاتل لما يسيل من دماء الروح في صمت..
القسوة.. هي الحب المتبخر، والوعود الكثيرة المُجترَة، والمقدمات
الطويلة للرحيل..

القسوة يا عزيزي، هي أنت.. في أضعف حالاتك، وهي أنا.. في أقوى
حالاتي، القسوة هي سيادة الموت على بقايا الحياة، هي اندثار آخر
الأمال وانتحار المعنى وضلال الحنين حين يجوب خرائط التيه في حيرة
الضائعين..

القسوة.. هي شجرة وارفةً مثمرة أسقطتها رياحٌ عاتية دون أن تنتزع جذورها لتدب في أعماق الأرض، غيماتٌ حجبت شعاع الشمس عن زهرة تعبدها، هي سر الحياة حين يتجمد بعد أعوامٍ من دفءٍ مديد!

هي الأرض حين لا تكفّ عن الدوران رغم انطفاء الشمس، هي النجوم المعلقة وحيدة حين يرحل عن نورها التائهون..

هي الكهوف الباردة في قلب حرارة صحراءٍ قاحلة! هي الرمال الناعمة حين تحتضن خطانا الواثقة بكل ود!

القسوة.. هي ليلٌ مصابٌ بالأرق يمتد بلا نهاية، هي غياب العطر عن الزهور وغياب اللون عن الفراشات وغياب الموج عن شاطئ المحيط، وغياب المعاني عن الكلمات، القسوة هي كل أشكال الغياب!

هي طيورٌ أخرسها الرحيل.. وعيونٌ جفت منها آبار الدموع.. وأنفاسٌ تتردد في جسدٍ أجوف تخلّت عنه الروح في ليلٍ مطير! هي تلك الكلمات الجامحة.. تصيب كل حي نابضٍ في مقتل.. هي أقفالٌ صمدنة على السننِ خرساء..

ومفاتيحٌ لأبوابٍ بلا مقابض! هي نوافذٌ تطل على رائحة الموت، هي حوائطٌ شاهقة لا تسترخوفي، وقضبانٌ من نار تحرق أحلام الحرية..

القسوة في أن أبصر النهاية آتيةً وأنتظرها في استسلام، أن تدفن معي كل أسرار الجوى، أن يتحول الودُّ إلى مقصلة السلام.

القسوة هي أن أدرك أنني لست سوى سراپٍ لعينين.. هي ألا أكون سوى ركامٍ.. في غياهب النسيان.

(49)

عزيزي البعيد جداً..

تحيةً طيبةً وبعد،

صدقاً لا أعرف لم ما زلتُ أُصرُّ على الكتابة لك! فما قيمة أن أكتب لمن لم يمتلك من القوة لأن يؤمن بوجودي! ما وزن كلماتي لدى من أطلق طلقاته النارية في الفضاء عابثاً مغتراً بدور البطولة الذي تدحرج إلى أن وصل عند قدميه محتفياً بتصفيق الجمهور، وصفارات الإعجاب، متباهياً بأن كانت له الكلمة الأخيرة، وإن كانت كلمة مهترئة صدئة سقطت من لغةٍ بالية لا معنى لكلماتها! ولكنها رنانة، رنانةً بالقدر الذي يكفي لأن تتخذ لنفسها مكاناً استراتيجياً متميزاً، في تمام لحظة إسدال الستار..

ما قيمة أن أخط كلماتٍ لن تقرأها؟ وإن فعلت.. فما قيمة أن تقرأ كلماتٍ لن تصدقها، بل وكيف لك أن تصدق كلماتٍ خُطت بيد من أنكرت وجوده من الأساس!

لا منطق في ذلك يا رجل المنطق، لا منطق في أن أستمري في كتابة رسائلٍ لن تُرسل، وكلماتٍ لن تُقرأ، ومشاعرٍ لن تُحس، وحقائقٍ لن تُصدق. فبأي منطق قد يُخطُّ السراب بيد السراب إلى سراب! بأي منطقٍ نكتب لمن اختار أن ينكر ما قد لمس به براحة يديه، واختار أن يكذب ما رآه بأم عينيه، حتى أصبح في عداد المنكرين الناكرين!

ولكني ما زلتُ أمارس عاداتي الرتيبة ذاتها، ما زلتُ أكتب لك قبل أن أتلّف جميع رسائلي، ربما مزق بعضها حدة صدقي وربما أطفأ بعضها نيران غضبي، وربما جعدّ بعضها وحدتي قبل أن أرمي بها جميعاً في ساحة الذكريات المقدسة، هناك.. حيث تراكمت تلالاً صغيرة من أحاديثنا التي توهمتُ صدقها، بجانب شبهاتها من رسومات طفولتي المجددة، وأقصد بالمجددة رسوماتي، وربما طفولتي.. بل أظنني عنيت كلاهما معاً! فكلاهما

كان مجعدًا، تمامًا كهيئة أحاديثنا الصامته التي لم تُنطق، بعد أن أنكرتها
بجد سيفك أيها الساموراي!

هناك حيث يرقد تاريخ مأساتي، في ذلك الركن المظلم، ركن صمتي
الثقيل، حيث ترددت خُطاك وتوقفت قدماك عن التقدم عند حدود
سطوع العتمة.

ها أنا أكتب لك رسالةً جديدة، لألقي بها إلى ذات الفراغ المُحكّم
بالغياب، المحيط بمنفائي الاختياري، بعيدًا جدًّا عن عالمك الصاخب
المتخبط بين صور بصرِك الكفيف حد التماذي في الإنكار.. تعلم كم أنني
أجِلُّ الحقيقة وكم أعشق الصدق ورغم ذلك لم تتردد في أن تُكذِّب وجودي
لحظة أن كذبت ذاتك!

فلتكمل دور البطولة في مسرحيتك الهزلية.. فلتكمله حتى النهاية،
فقد تركت لك ساحة المسرح وتفاصيل النص وعقول الجمهور! فما
اخترت أن تصدقه لن يعيش به أحدٌ سواك!

تركت لك المشهد كاملاً لتمارس طقوسك باستمتاع.. تركت لك كل
شيء وانسحبت في هدوء لتسعد بتصفيقٍ أعلى من جمهورك الأصم!
اطمئن.. وارقد بأوهامي في سلام، فإني لن أزعجك برسائلي يا عزيزي.. فإن
وصلك مني مكتوبٌ فاعلم أنني لم أعد وذلك المكتوب في ذات الوجود، فلن
أكون حينها على قيد الوجود، فيما أن أكون قد تخلصت من قيده رحيلًا
عنه، وإما أن أكون قد تخلصت من قيده انغماسًا فيه، فلا تبحث عني في
كلتا الحالتين، فحيثُ وجدتُ أنت.. رحلتُ أنا، ذلك هو منطوق حكمك
العادل الذي أطلقته يا عزيزي، أن على أحدها أن يتوهم وجود الآخر.. تلك
هي قواعد لعبة السراب.. التي لا يتجرأ على ممارستها أحدٌ سواه.

مساومة

ما الضير!

في أن نكتفي بما تمتلكه أيدينا لنصنع عالماً مثيراً..

في أن تبهجنا أبسط الأشياء..

وقتلنا أحلامنا كيفما البالون يملأه الهواء..

فنطير..

ما الضير في أن أتمنك طيفاً خالداً لا حبيباً راحلاً!

في أن نذرف الدمع في غير أوان المطر

وأن نصدح بالضحكات في غير أوقات الضجيج

ما الضير في أن تصادقَ صمتي.. وكآبتي.. وغرابتي!

في أن تشتاق رعونتي..

أن تقبل رحيلي عند ضعفي،

وتنظرُ شجاعتي في رجعتي..

أن تهدني سواراً من كلماتك العفوية..

أو طوق وروِدٍ جورية،

كادت أن تقتلها الوحدة قبل أن تجمعها يداك!

أيا إنسان.. ما الضير في أن أهواك!

أو أن يغلبني حضور ذاتي معك،

حين تبتهج بقلبيك فرحتي..

(50)

عزيزي البعيد..

تحيةً طيبةً وبعد،

تلك الأماكن التي نمر بها وتلك الأشياء التي نلمسها وتلك التي تقع عليها أبصارنا إنما تنسخ عنا بصمة أرواحنا، فبأي تفسير يمكنك أن تعلق استدعاء أرواح قد رافقت خطواتنا بذات الأماكن بمجرد المرور بها، أو بأن تقع أنظارنا على وجوه توضأت بنظرات من نحب!

نظن الحب وهمًا إلى أن نفترق فنؤمن أنه حقيقة، ونظنه حالةً عابرة إلى أن نفترق فيتكشف لنا كم تمتد جذوره بأعماقنا.. ولكم كرم من استطاع إدراك الحقيقة في أوانها.

كثيرًا ما يرحل الراحلون بعد أن يُتموا تشويمنا، فإذا ما عجزوا عن فعل ذلك اكتفوا بتشويه صورتنا في خيالهم، فذلك هو مُسكّن الألم الذي يبقى بحوزة الزمن، فكيف لنفسٍ أن تنفض ما تحمله من ثقلٍ دون خداع؟! ذلك لأنهم يدركون أن الندم قادم لا محالة، فيتسلحون له بكل ما أمكنهم استعدادًا للمعركة.. ولكن ألا تفكر للحظة يا عزيزي فيمن رحل ولم يحمل لك في قلبه سوى كل معاني الحب والود والسلام؟! ألم تفكر في ذلك الذي انفجر ألمه منذ اللحظة الأولى لكلمات النهاية!

إن الشجاعة في الحب لا تكمن في منحه يا عزيزي، فلا أبسط ولا أيسر من منح الحب، وإنما تكمن الشجاعة في القدرة على استقباله. فصدق الحب لا يتحمله ضعاف القلوب، يولونه الفرار مدبرين.

لكم نهم الحب بالخذلان وهو من الخذلان بريء! بيد أن آلام النهايات تزرعها حماقات البدايات فيما نحن غافلون.

(51)

عزيزي البعيد..

تحيةً طيبةً وبعد،

أدرکتُ أن ما يلهب جراحنا، ليس الخذلان بقدر أنه الجهل. الجهل
بما تباغتتنا به الحياة دون أي مقدمات!

والجهل بأسباب الجراح وبدآياتها التي تجتئنا إليها.. فأصعب الجراح
هي تلك التي لا ندرك مصدرها.. جراحًا تبدو كأحجياتٍ عتيقةٍ تستعصي
على الفهم! تُصيبُ عقولنا بالشلل.. وتقيد أطراف ألسنتنا حتى عن
الاستفهام!

إن عدم اكتمال الرؤية يصيبنا بالعمى.. والغموض لا يختلف عن
العمى في أي شيء.. بل إنه العمى ذاته!

والأعمى يعتمد الخيال في رسم المشهد المتكرر لاغتيال سكونه..
ومشوشُ الرؤى كفيفٌ آخر.. يعتمد الخيال ليكمل أجزاءً أحجياتها
الناقصة!

وأنا وأنت، كيانٌ واحد.. لا يتحمل النقصان! لا يتحمل غموض
الطريق المكبل بالأغصان! لا يتحمل اختفاء ما ينقصه من ألوان البيان..
مضينا نكمل الدوائر المنقوصة ونصل كل ما نصادفه من خطوطٍ
متقطعةٍ بجملٍ لا محل لها من الإعراب! وصمتٍ يصرخ بكل أشكال
العذاب، وأكاذيبٍ قصيرة العمر تموت في مهدها قبل الأخذ بالأسباب.
نوصل المنقوص بالمنتقص! نربط المهترئ منّا بما بدى من ظلِّ خيالٍ
ملتبس..

وأنا وأنت كيانٌ.. لا يستهويه العمى، ولا يصطبر على قلبه الأبكم
الوليد، كيانٌ لا حياة له في أحضان الظلام، ولا ميلاد له في نور الصباح

الجديد!

لا أتذكر أن تدرج حلول أيًا من جراحي، قد كان كل منها مُنقَضًا على إدراك قلبي، صادمًا.. مبالغًا، بأسرع من صرخات الألم! بل بأسرع من قدرة النفس على الاستيعاب، أو عن الشعور بما يتهاربداخلي من مسكنٍ حَرِب..

كل الجراح تسيل فتوقظ الألم في حينها، بينما تنزف جراحي في غيابٍ من وعيي لأزمان وأزمان حتى إذا ما أدركتها بعد حين أدركني شبح التلاشي بعد فوات الأوان بأوان..

تبدو الجراح بليغةً حتى ير افقها الزمن.. فتستحيل إلى بقعةٍ داكنةٍ على جسد الذاكرة، بقعةٌ داميةٌ فاسدة، تنتظر مخلبٍ صغيرٍ يفقأها لتنزف من جديد، ولكن يا عزيزي هل تتساوى في الأوجاع الجراح؟ فهل يستوي جَزَعُ القلب العليل بأخر منزوعٍ مُقتَلَعٍ؟! لا أدري! ما أدركه حقًا هو أنني أشعر بالخواء، لا شيء سوى الفراغ، لا شيء على الإطلاق! وإني أتساءل وقد امتلأت نفسي خوفًا وجزعًا عن طعم الخذلان القادم، حين يعود وعيي الغائب ليكتشف عمق جراحي الغائرة. بل قدر ما انتزع من ذاتي انتزاعًا! أتساءل: إلى أي حدٍ سيفرقني عندها الألم؟ ولكني لا أملك سوى الاستسلام، تحاصرني ببداء انتظارٍ، وها أنا ذا في كل يومٍ.. أنتظر!

(52)

عزيزي البعيد..

تحيةً طيبةً وبعد،

نبشت في حقيبة ذكرياتي وفي تلك الرفوف على جدران قلبي وتلك الأدرج المثبتة على درجات عقلي.. فلم أجد من ذكرى تجمعنا.. فابتسمت واطمأنت!

فكيف لك أن تكون ذكرى بينما قد تجمعت بك لحظة الحياة! كيف لك أن تكون ماضيًا وأنت اليوم وكل يوم وأنت الصباح وأنت المساء، وأنت الأرض وأنت السماء، وأنت الرحيل وأنت البقاء!

ذراتٌ مبعثرة في عروق دمي.. وشمٌ مرسومٌ على جدران قلبي.. طريقٌ محفوظٌ في خطوط يدي، الفرح والحزن وما بينهما من شجن.. النهار والعتمة وما بينهما من ظلال..

أتعلم أن في الشوق سُكْرٌ وفي الحنين حياة، وأن في المسافات وطن وأن في البعد نجاة، وأن في غياب الحبيب يكون كل الحضور، وأن في كتمان الأسرار لهيبٌ من الإقرار يشتعل بالمُقل..

أظنك تعلم.. بل أظنك تدرك.. بل أظنك تتنفس ما أقول وما لا أقول.. أظنك بقربي بالقدر الكافي لأن أرى ما ارتسم في مقلتيك، وما ينطق به لسان حالك، وما ترتعش له خلجات وجهك، ذلك المختبئ خلف قناع قسوتك الهش.. وإن أنكرت، فأنت يا عزيزي بارعٌ في الإنكار!

اسمع ضحككتك الخجلى وهمسك المنكسر وصخبك المجنون حين ثوروكبركانٍ أعمى لا يرى أين تستقر حممه الحارقة..

ثم تهدأ لتستقر قبلات كلماتك الدافئة على جبهة حزني تحمل في طياتها ألف رسالة حب وألف لغة اعتذار..

ثُمَّ نُوَلِّدُ مِنْ جَدِيدٍ _____

لم أعد أدري إن كنت حقيقةً عشتها أم خيال صافحني ذات حلمٍ
طويل!

ولكنك باقى، بقاء الحقيقة وإن رحلت، خالدًا، خلود الروح.. وإن
فارقَت..

كاذبٌ أنت يا عزيزي.. وإن صدقت.

(53)

عزيزي البعيد..

تحيةً طيبةً وبعد،

أحياناً ما نبالغ في تصديق ظنوننا وأوهامنا حتى تعى أنفسنا عن كل الحقائق! بل عن أعزها وأجلها وأصدقها وأبقاها، حين نغمض أعيننا خوف الألم. وأنت حين وضعت يدك على جرحك القديم تحميه من هجوم جرح جديد نكأته بنايك حتى غطت ذكرى آلامه على كل الحقائق!

لك بضعٌ وسبعون عذراً يا عزيزي.. فذلك عهد الأوفياء الذي لا يتبدل، وأنت لست سوى بشرٍ والبشر لا يعي للألم معنى سوى العذاب! بيد أن بعض الألم نسده ثمناً لأخطاءٍ اقترفناها في حق أنفسنا وفي حق الآخرين.. وليس عذاباً لقلوبٍ تبعناها يوماً مؤمنين!!

فيما تفيد أسوارٍ نشيدها إن كان ما نهرب منه كامناً بداخلنا ذائباً في دماننا! فيم تفيد الجدران وسمكها في ملكوتٍ لا يعي وزناً للمادة! وما فائدة وجود الأجنحة في جسد طيرٍ أثنخته جراحاً متتالية حتى تمدد مستسلماً في سكون لا ينتظر شيئاً! لم يعد يملك سوى ابتسامَةٍ وبارقة أملٍ في حلول سلامٍ ليس ببعيد رغم كل شيء..

فلماذا تستكثر على طائرِكَ حديثه الصامت! لماذا تُبَيِّك الأذان عن صوت الحقيقة الحبيس وتسجن ذاتك في خزانةٍ من صنع يدك! إن كنت قد اكتفيت من تغريد طائرِكَ فإنه لم يكتفي من التغريد بعد!

تلك الخدوش على كتفك، تلك التي ظننتها محاولاتٍ منه لإبلامك ماهي إلا محاولاتٍ يائسةٍ للتشبث بك!

محاولاتٌ يائسةٍ للتعلق بأخر خيطٍ رفيعٍ باقٍ علّه يصله بك! ولكنك لم تُدرك شيئاً من ذلك يا عزيزي.. فأنت أبعد من أن تدرك! كيف تفقه

لغة طيرٍ مبتور اللسان و أنت لست بداوودَ أو بسليمانَ ولم تؤتِي شيئاً من
منطق الطير!

أعلم أنك بشر! ولن يسع بشري حين يرى قطرات الدماء على خدوش
كتفه أن يدرك لها نذيراً سوى الألم!

لم يبقَ شيءٌ يُقال، فقد كسرت كل الأقلام ومزقت عنوةً ما كان بين
يدي من صحف! شيد ما شئت، فجدرانك الشاهقة تلك التي شيدتها
حولك لن تحول بين روحي! ووطنوك النامية في رأسك لن تقوى على التهام
الحقيقة الوحيدة الباقية..

جُبلت الطيور على الطيران، وتظل الطيور على عهدها لن تتنازل عن
عشها وإن حالت دون رغبتها جدرانك الشاهقة.

فلتغالي في غيابك، ارحل بل وتماهي في الرحيل.. ولكن اصمت
وانصت وجدد عهد إيمانك بما في قلبك، فالشك بصدق الحب إلحاد..
وإنه لو تعلم لكفرٌ عظيم..

(54)

عزيزي البعيد..

تحيةً طيبةً وبعد،

أستطيع أن أشعر بتقلصات مشاعري واعوجاج أحاسيسي.. أستطيع لمس تصدُّع إيماني بيقينٍ كان بيننا، وأن أبصر ما تبقى من أشلاء الأمل في قلبي، أستطيع أن أبكي دون دموع.. وأن تبقى ابتسامتي رغم الأوجاع لا يزيلها ارتباك!

أستطيع أن أنام ملء جفوني رغم تصدع عقلي وأوجاع قلبي وارتعاش روحي عند حافة حلقي! أستطيع أن أسير على الأرض دون شوقٍ إلى التحليق، دون اعتبارٍ لعر اقبل الطريق، دون خوف!

لماذا تصرُّ على كل ذلك الاغتراب يا عزيزي. ثم وماذا إن تلاشيت أنا عمّا أكون، ماذا إن فارقتني جنوني، وموطن روحي، وأفكاري، وظنوني، وحتى أحلامي! ماذا إن فارقتني كل ما علق بي ممي، أودعه إلى حيث لا رجعة قبل أن ألقى به من حافة وجودي، فأسقط كلما سقط منه جزءاً في قعر الفناء! أسقط في انعدامٍ للجاذبية، سقوطاً لم يكن له أن يكون حراً، سقوطاً مكبلاً بقصائدك الموشومة على جدران عروقي، وكلماتك المنسية زمناً في خطوط يدي.. فهل توصل ما انقطع؟ وكيف يا عزيزي؟ كيف أكون أنا هي أنا التي أحببتها أنت.. إن لم أكن نفسي؟!

أتظنني أتلاشى من وجودك لمجرد الرحيل؟ أتظنني أستسلم لما ابتدعه من أوهام فأفارق موطني الوحيد حيث أنتهي! بل إنني سأسقط في أعماقك أعواماً طويلة دون ارتطام، فأتحلل إلى ذراتٍ صغيرة تستقر في خلايا جسديك!

فكيف لك أن تتحرر مني بينما أذوب في دمائك! كيف تتخلص من أنفاس صدرك أو من خلايا دماغك، كيف وقد فنيت في ذاتك ولن يخلصك

تُم نولّد من جديد

متي.. سوى الموت.

(55)

عزيزي البعيد..

تحيةً طيبةً وبعد،

ظننتُني في رحلةٍ طويلةٍ أبحثُ خلفك عن حقيقةٍ غائبة، ظننتُني ألهمتُ وراء طيفها ركضًا أو أنبش أرضها الخصبة بأظافري، ظننتُني مختبئةً في مكان ما! مدفونةً في الكتمان ربما، مستترَةً خلف الأكاذيب ربما! متنكرةً في الزي التمويهي للتجملُ ربما!

ولكنني وبعد طول بحثٍ صادفتها ها هنا خلفي! تقف ساكنةً ترقبني وترقب شغفي في البحث عنها مشفقةً عليّ مما أصابني من تيه! أنا لم أجد الحقيقة، بل هي من وجدتي، اقتحمتني اقتحامًا موجهًا! لم أتل منها شيئًا بل نالت هي مني، ولم أجد أمام سطوتها غير الانصياع والتسليم.

فنحن عندما نصل إلى الحقيقة غالبًا ما نتألم، ليس لكونها حقيقة بل لأنها صادقة.. صادقة إلى الحد الذي يهدم كل ما بنيناه من أفكارٍ وقناعاتٍ وآمالٍ وأوهام.. صادقةً إلى الحد الذي ينحر أعناقنا المدفونة في الرمال!!

والصدق نورٌ يؤلم الأعين بعد سباتها الطويل، والحقيقة صادقةٌ إلى الحد الذي يفنينا في بئر عميقٍ من المفاجأة مفتوحة النهاية، غامضة المغزى، مُطلقة الغيبية! صادقةً إلى الحد الذي تجد معه فينا مدخلًا وأبوها بكل ذرةٍ تقاومها بنا، حتى ترقد بداخلنا في سلامٍ يمنعنا الحراك، يمنعنا حتى من إعادة المحاولة!

لم أكن أبحث عنك، قد كنتُ أبحث عن الحقيقة.. وإذا بكما واحد! والحقيقة نهاية كنتُ أظن أن ليس لها من وجود! الحقيقة نهاية.. وأنت نهاية! نهايتي ربما أو نهاية ما اعتدتُ عليه أن أكون.

وإني لم أعرف بعد من أكون، وقد وصلت إلى نهاية الطريق! لقد
خطوتُ آخر الخطى.. وتركتُ خلفي آخر الآثار.

لا تلمني لتوقفي.. فقد كان هذا هو طريقي منذ البداية، فقط.. أنهيته
قبل الأوان بأوان..

سأظل واقفةً هنا في منتصف كل شيء.. أنعم بتوقي إليك وأمتئي
بك وأنثر كل ذلك الذي تبعته بي إلى كل الكون!

فأنا الوسيط يا عزيزي.. والوسيط لا يتحرك لأبعد من حدود
المنتصف!

أنا الوسيط! وجدتُ لأبعثُ إلى الكون ما لا أملك الحق في امتلاكه..
وجدتُ لأبعثُ المعاني.. كل المعاني، دون أن أرتشف من شهدها قطرةً
واحدة!

ليتنا نملك أن نكذب الحقائق ونصدق الأكاذيب، ليتنا نملك أن
ندعي كالمدّعين وننتهي من هذا العذاب.. ليتنا نقف لبرهةٍ فقط لنتنفس
الصعداء.. ربما أشفق علينا الزمن! ليتنا نوقظ الأطفال التي تسكننا،
فقط لبضع لحظاتٍ تكفي لأن نذكرنا بمن نكون.

(56)

عزيزي البعيد..

تحيةً طيبةً وبعد،

حائرةٌ أنا بأدوات استفهامي الكثيرة تنقل بين كل ثنايا فكري الذي لا يهدأ أبداً، يقودني كل استفهامٍ إلى آخر في متسلسلةٍ طويلة من الفضول غير المنقطع. حائرةٌ بينها، فأيهما على أن أضيفه إلى قائمة أفكارٍ وأيهما يجب أن ينزوي عن خاطري؟

حائرةٌ في أمر البدايات والنهايات.. وكيف أن مأساة النهايات لا تكون أقل جنوناً من رونق البدايات!

لكم يتدخل الوهم في ملء الحلقات المفرغة وإكمال الدوائر المفتوحة، واستكمال الخطوط المتقطعة، والتحايل على المنحنيات غير المكتملة لتعترف قهراً بما لم تعنيه يوماً.. لكم يتدخل الوهم ليضيف ما لا وجود له ولا منطق به ولا سبب لوجوده سوى طغيان سيطرته على الحقيقة.. ولكم تأسرك الأوهام يا عزيزي!

أملك من العيون ما يغطي كل جسدي.. فأرى كل شيء حتى يعميني وضوح المشاهد عن كل شيء..

يمألني من النساءٍ مزيج ملعون.. لم يكن لكل تلك الشخصوس لأن تجتمع لديه وتستقر به في سكون، ولكنها فعلت واندمجت وتجانست إلى الحد الذي لا يمكن إدراكه أو تصديقه! ورغم شدة تباينهن جميعاً إلا أنه لا ملامح للصراع فيما بينهن وإنما اجتماعٌ على نفسٍ واحدة لها من الوجود بأشكالهن ومن الألسنة بعددهن ومن التقلبات باختلافهن! اجتمعن جميعاً حد الانصهار بداخلي.. لأكون أنا!

أنا.. تلك القابعة في زاوية بعيدة بذاكرتك ربما أو بذاكرة التاريخ إن أردت صدقًا، فذاكرة التاريخ أقوى من ذاكرة البشر، فالتاريخ لا يهرب من ذكرياته وإنما يشتهي بها الجمع والحصاد!

أنا.. هي تلك التي لم يتمكن أحد من أن يعيد ترتيب أجزائها وتجميع أجزاء أحجيتها، حتى أنت يا عزيزي! قد كان لدي أمل أخير لأن يدلك الفراق إلى معنّى! فلم أجد سوى أنك لم تدرك للحظة من أكون! كان الفراق بالكاد كافيًا لتشويبي، فما أيسر التشويه إلى النفس من الاكتشاف، وما أأمنه على النفس من الغوص في أعماقٍ قد يرديك مواجهة ما دفن بها من أسرار. تلك الهوة العميقة بيني وبين ألوان الفقد لا أقوى على الاقتراب منها، وإني أدرك أن اقترابي من الرحيل يدني من الفقد مقدار توقي لقتله.. ولكن هيهات فلا شيء يزول بالنهاية، كل الآثار باقية بل وخالدة وإن نسيناها أو تناسيناها، فإنها ستظل محفورةً بمكان ما على جدران الحقيقة. تلك الحقيقة التي تهرب منها يا عزيزي ربما لأنك تهابها، وربما لأنها تهابك..

أيًا كان.. فربما كان كلاكما على حق!

(57)

عزيزي البعيد..

تحيةً طيبةً وبعد،

لا أقسى على الإنسان من وقع السقوط إلى واقع يصرخ بحقيقة لا صلة لها بتلك اللوحات التي نقشها الخيال بسماء أوهامه. ولا أقسى عليه من أن يرى ويسمع تلك الحقيقة، بل وأن تتشرّبها كل حواسه بعد أن صرخ بها القلب كثيرًا دون جدوى بينما كان يدّعي هو تمام الصمم!

ربما خذلتني.. ولكن ليس كخذلاني لنفسني! ربما أرقّت روحًا باتت تحلق في ذلك المكان حيث موطن الروح حين ظننت أنها على موعدٍ مع اللقاء البعيد.. تظن أن لها الأثر الأول في كل خطوةٍ على تلك السبل المطروقة والبصمة الأولى على كل حجرٍ مرت عليه، وكل بابٍ طرقته، وكل نقشٍ لمسته، وكل روحٍ قابلتها فعانقتها حتى كادت تسلب روعي معها إلى حيث تنتهي..

في ذلك اللقاء البعيد.. في ذلك الكتاب التاريخي الذي ازدحم بكل أبطاله يتجولون من حولنا يصفحونني وبتسمون في وجهي إكرامًا لك، فلربما ظنوا أنني حبيبتك الغائبة وقد عدت بها إليهم من جديد.

لا أدري يا عزيزي فيم كنتُ أنا وفيم أَدفعُ ثمنًا أصبح ثقيلًا على روعي، أو هل تحتاج قوةً فتسلبني قوتي لتحيا، أم أنك تبتغي انتحارًا فتقتلني لتموت؟ أتبتغي إحياء ذكرى تجسدها بقلبي، أم أنك تبتغي النسيان فتراني ممحاةً تفي بالعرض المنشود؟ لا أدري يا عزيزي أكنتُ أنا أول من يصنع معك الذكريات بهذا الكيان، أم أنني مررتُ معك على كل ذكرياتك بينما كنا نطأ تلك الخطوات سويًا.. ربما لأمحها وربما لأحيها..

فما من بشرٍ يعلم دوري في قصتك تلك.. سواك أنت.

اكتئاب

لا أدري!

إن كان وطني قبله نحو الفضاء..

أم أنه بحر رمالٍ.. يجُرُّني إلى خواء..

لم أعد أميز ملامح الوهم في وجه النقاء..

أو صوت الصدق في صخب الكذب بأروقة الحقيقة..

لم أعد أفرِّق بين صدق الحدس.. ورجاء آمنياتٍ بريئة..

لم يعد يشغلني فقدان الرفيق..

أو في أي زمنٍ مضى قد شبَّ في قلبي الحريق..

لم أعد أسأل عن اتجاه الطريق..

ومن أي مكانٍ أتى بي تيهي

وإلى أي مكانٍ، يحملني ما تبقى من حلمي الغريق..

أتعجب من قصر الأمد رغم طول أجل الحقيقة!

وتقلُّص الزمن في عين ذي الفرحة الطليقة..

أتعجب.. من حياة تزها الأيام.. بميزانٍ من دقائق زائلة..

ولحظاتٍ.. رغم ديب الحياة فيها واهنة ذابلة..

أتعجب.. من روح تجوب الأرض بحثًا عن وليف..

وقلبٌ تعلق بنصف حياة.. سكنها نصف كيانٍ هزيلٍ ضعيف..

أتعجب من عمرٍ يذوب.. دون ذهولٍ منبثق..

يتلاشى.. كالريح حين تذر الرماد المحترق..

أتعجب .. من فقر الهوى رغم غنى القلوب ..
وألم الفراق .. رغم تقاطع كل الدروب!
أتعجب أمر عيونٍ كاذبة، فضحتها صرخات الندوب ..
أتعجب .. خطيُّ أصابها الملل ..
وآثار خفيٍّ ضرييرٍ معطوب .. منذ أن أبصره الأزل!
أتعجب حلول الموت .. على يد الصدق!
وتسلُّط الدلِّ .. على يد الأمل!
أتعجب من الظلم حين يجور .. على يد عادلٍ مقهور
ونبات القسوة .. في قلب عاشقٍ وجل!
فإلى انتظار!
يتراقص كاللهب، بين خيالات اختيار ..
وقد تدثّر بعباءة الغيب المظلمة .. ينادي في صمتٍ بإصرار!
فإلى انتظار ..
وما الضير، ولم تعد تزورنا دموعٌ وارقة ..
لم نعد نشناق سعادةً زائفة ..
لم تعد تحمل أنفسنا .. أشواقًا نازفة ..
ورغم الظلام!
رغم موت الكلام ..
رغم اكتفاء الصبر، ورحيلٍ يهدد به السلام ..
رغم الخواء .. حين تتردد بين جدرانها ضحكاتٌ ساخرةٌ ماجنة
يبقى الرحيل ..

ويرحل البقاء إلى حيث ما كتب له من سبيل..
لا يُخْطئُ القدر.. إذا ما أصاب موطنه!
ولا يصيب خطأ.. وإن كان لنا دليل.

(58)

عزيزي البعيد..

تحيةً طيبةً وبعد،

تبقى الذكريات، تلك التي نمزقها بنهاية كل يومٍ على أمل النسيان ثم نستيقظ لنجدها قد التحمت من جديد.. تمامًا كما تبقى آثار الأحداث في الصور الممزقة، تلك التي مزقتها توفًا إلى إنكار وقوع أحداثها!

تبقى الأحداث في آثار الحواف المجترأة من الصورة أو في تجاوبها الفارغة مبهمة المعاني.. أو في بقاياها التي نسينا أن نمحي وجودها الشاهد على وجود ما حذفناه.. تبقى كعلامات الاستفهام العالقة ببقايا الصور المهترئة! هكذا تبقى الذكريات.. آثارًا لا تُبلى كلما حاولنا تشويبهها تأملنا تلك الآثار ثم وقفنا على حافة الحزن ناظرين إلى حفرة العميقة المظلمة خائفين من السقوط.. وحين تسكن عواصف مشاعرنا وتتجلى الحقائق في غياب الوهم.. يغمرنا الاستسلام بغتة.. فنستسلم للسقوط بكامل إرادتنا.. نسقط تغمرنا جاذبية لا نميز حينها إن كانت جاذبية السقوط الحرام أنها قوة ابتلاع الظلام!

نسقط حتى نفيق على حقيقة أخرى أننا أبدًا لا نرتطم! نسقط كصندوقٍ ممتلئٍ لآخره بمشاعرٍ تحمل في طياتها كل المتناقضات!
قد لا تبكي فقدًا ما لشهورٍ طويلة ولكنك لن تتوقف عن الارتجاف.. ذلك الارتجاف المكلل بالذهول!

ذلك الارتجاف الذي يمنعك من أن تكمل ذكرى واحدة جمعتك بهم لنهايتها، وكأنك تخاف زوال تلك الذكرى من عقلك لمجرد إتمام استحضارها! ذلك الارتجاف الذي يمنعك حتى من أن تتم استدعاء واقعة الفقد ذاتها! تحذفها كما تحذف كل ما أردت إنكاره من أجزاء الصور.. فلا تتمكن من تجاوز الحدود الفاصلة بين الحياة والموت! تظل هناك عالقًا

في تلك الصورة الغامضة المشوشة.. دون تدهور أو تقدم! وكأنه الزمن وقد أصيب بعطبٍ يمنعه الحراك أو بلعنةٍ تقيده بالشلل!

لَفْظٌ رَحِيٌّ يجعل منك شخصًا دائم التيه حتى وإن كنت تمر بأجمل لحظات حياتك.. وإن كنت في أزهى عصورك.. وإن كنت كهلاً تحصي ما تبقى لك من أيام قلائل تفصلك عن موعدك القديم مع الموت!

تظل تائهًا تيه المغترب إلى أراضٍ لا تدرك فيها متكئًا يتحمل ثقل نفسك! أراضٍ لا تجد فيها ملجأ يطمئنك بأن لك مكان ما بداخله في حال ضاقت بك الأماكن ولفظتك الحياة بقسوتها المعتادة..

للفقد وجهٌ بشع لا تُنسى ملامحه، ورغم أننا نتوقع الفقد دون توقفٍ عن تصور حدوثه وبالأخص مع أولئك الذين نتمنى عدم فقداهم أبدًا، إلا أن الفقد يزور خيالنا بحلةٍ كاملةٍ أنيقة تخفي الكثير من حقيقته، ولكنه لحظة أن يقرر الحضور بوأقعنا فإنه يظهر مجردًا من حُلته الأنيقة.. عاريًا تمامًا كما ولدته الأقدار.. لا يُستر من حقيقته شيء.. ولا يُختزل من تكوينه شيء..

(59)

عزيزي البعيد..

تحيةً طيبةً وبعد،

يجذبني الحنين إلى الذكريات البعيدة، تسرق روحي تلك الدقائق الثقيلة لتحوم حول ذلك البيت القديم، تتسلق تلك الشجرة العارية حيث ضياء القمر الخافت مختبئاً خلف غصونها الكثيفة المتشابكة ترقبهما عينان من أمل. تهرب الروح، تعود إلى ماضٍ ولّى زمانه، وتصر على البقاء في درجٍ خشبيٍّ قديمٍ تفوح منه رائحة البلوط، تبيت هناك بين رسومٍ قديمةٍ مجمعة بألوانها المائية وقد جفها الزمن! فاستحالت باهتةً كصاحبها..

بالأمس القريب أو ربما بذلك البعيد! كان لي حذاءٌ من قماشٍ رخيص ينزلق على الأرض فلا يعيق خطواتي الراقصة، زاره الحنين، ووجده بالياً مهترئاً.. مزقت الأرض نعله إرباً.

حُلِيٌّ بلاستيكية ملونة، تناثرت وتبعثرت.. لم يتبق منها سوى لونٍ من كل قطعة في ذاكرة الزمن، وقطعة من كل لونٍ في ذاكرتي.. لوحة زيتية يقطن بها كوخٌ صغير ويحيطها إطارٌ خشبي أبيض، تأرجحت وحيدةً كصاحبها على جدار الغرفة..

كتلك الفتاة الضئيلة المرسومة عند باب الكوخ! لا يحمل وجهها ملامحٌ تُذكرونها ي زال الظن يملأني بأنها كانت تبكي من قبل حتى أن يرسمها صانعها!

شخوصٌ وأحداثٌ وحكايات تتجدد، تدور على بُسَطِ منزل الطفولة القديم وستائره الشفافة البيضاء حين يعبث بها الهواء فتتغير الحكايات وتبديل ما بها من وجوه!

الصورة المنعكسة بالمرآة، أنقب بين ملامحها عن نفسي، أبوح لها
بسري وأداعب بها أحداث أمسي في محاولة للتصديق!

قصائدي التي مزقتها أمني يومًا خوفًا من أن تنال حروفها مني.. فبعثت
أرواح أبياتها بداخلي تتأرانتيقًا!

القيثار الإسباني.. والبيانو الأسود العتيق بأصابعه المصفرة
المعطوبة..

كل الألحان وكل الألوان وكل ما في أدراج ذاكرتي من قصاصاتٍ بعثها
الزمن، وكل ما دفن يومًا في أغوار نفسي.. أو ألقى على قارعة الواقع المرير..
كلما تجمعت الدموع في المقل يرنو إلى الماضي عدوًا مهاجم ذاكرتي، ويعبث
بسلام نفسي..

ربما قد تحين على أن أعود إلى موطني القديم، ربما أن الأوان لأن
يحتضني نبراس وحدتي.. فلا يتحتم عليّ العودة إلى مشهد عينيك
المُرْبكتين، لنلا يقهرني السلام بهجره.. أو يذلني رحيله بوحشته!
لنلا يلوم على الواقع لهفتي! أو يعتب على حزنًا لا أعرف حدودًا
لنهايته!

ورغم أن كل الأشياء في الماضي تؤنسني، إلا أنها تظل باهتةً باردةً.. بل
نافقة! ينقصها الروح، ينقصها البوح، تنقصها الحياة، ينقصها اكتمال
حلمٍ بعيد!

ربما أرحل يومًا إلى الماضي بملء إرادتي! لحظة أن تخفت صورة
حاضري، فتتشابه درجات اللون الرمادي بالصور.. ويتشابه الزمن..
ويتشابه الفقد!

(60)

عزيزي البعيد..

تحيةً طيبةً وبعد،

يرحل المارون في ومضةٍ من قدرٍ يحفه الظلام يخلفوننا وراء ظهورهم
المُعتمة في تمام منتصف اللاشيء، مقيدين إلى جدران الفراغ، أسيرةً
أرواحنا لوقع الرحيل الرتيب، عالقين في ذاكرة الزمن وفي رائحة الطرقات..
في إطارات الصور القديمة وفي انسحابات القوس على أوتار الكمان، في
ملاحح الأشياء وفي دفء الشتاء وفي كل ألوان صفحة السماء.. تأمّن بين
الأسباب ممزقين بين الظنون.. حائرين فيما تبعث في أنحاء أرواحنا من
شتات!

تتقلب الحروف في مدادها، لا تكفي الكلمات لطرق معانها.. ولا
يتحمل أوزاناً ووزن قوافيها. تسخر منا الأحلام ليلاً. وتقتات على بقايا
نهارنا الذكريات. سيسلب من أحلامنا السلام، ستصلب أجدائها على باب
الأمانى بحبلٍ من وعودٍ تبرأ من صدقها الزمن، سينثر الصمت أية خلف
أثار رحيلنا، ويخلف لنا إرثاً عاقاً من اللحظات ووصيةً من سطرٍ واحدٍ،
كتبت بخط الرحيل الرديء، ومحتة زخات المطر في يومٍ عاصفٍ تشابهت
به كل وجوه الحقيقة وتحطمت به أشرعة الأحلام على شاطئ الوحدة
القريب وتجمدت على أرضه ملاحح الحياة..

أكمل طريقك يا رفيق الروح.. لا تلتفت ولا تبالي، استمر في استكمال
لوحة الفراق.. اسكب عليها ما اخترته لها من ألوان الجنون.. لا عليك
أيها اللقاء المسكوب على أروقة الفناء.. المهودور في أزقة الواقع المهجور،
أيها اللقاء المنسكب في قناني الصمت المعتمة. استمر في تجاهلك.. فإن
أكثر اذك يُجترُّ من نخاع عظامي، ويسلب الحياة من خلايا دمي!

كنت قد هجرت المعبد المسكون بالحزن عند منعطف النسيان
منذ زمن لقائك المبتور، فارقتُ طقوس الموت انتحارًا على مذبح الحياة
في سبيل الموت غرقاً في بئر عينيك. وها قد كفرتُ بالسكون الصاخب
وبالصخب البارد، وبالرماد المتبقي من الضحكات الباكية. كفرتُ بكل
الأوراق الفارغة البالية وبمفاتيح الآمال الصدئة العارية.. كفرتُ بالصمود
في وجه أمواج الحزن العاتية، واستسلمتُ يا وطني المهجور.. استسلمتُ
لكل ما أراد احتراقي، لكل ما أراد استباق عقلي وتحرير جنون احتراقي، لكل
ألحان اللقاء والوداع المتتالية.

لا تكثرث.. فإنك إذا تفعل توقظني من غفلي على مطارق الألم تجرُّ
سلامي نحو العدم، تحرقني كما احتراق فتيل الصبر.. كلهبٍ أشعله السقم!
لا تلقي بالألما تخلفه وراء خطاك العجولة الواسعة.. فبحر الحزن في
قلبي قد امتلأ حتى ابتلت به أطراف السلام، فما عادت الشمس تُدفي، وما
عاد للمطر أن يروي ظمآن.

(61)

عزيزي البعيد..

تحيةً طيبةً وبعد،

أدركتني أيامٌ متتالية لم أميز بينها من ليلٍ بعتمة ذلك الصباح، يوم أن بدأت مراسم فقدان حلبي البعيد!

بدأت بشروقي اكتمل في سماء واقعي بعد ألف عامٍ من الانتظار خلف ظلال الغروب وكأنما كان وداعاً أخيراً لي من السماء، وداعاً يربت على روحي ببرودٍ شديد، تلك الروح العالقة بشاطئ بحر الأحجيات الغريق، جلدتني أمواجه حتى تأكلت أنصاف أفكارني فأصيب إدراكي بالعطب!

احتلني الإنهاك على إثر تمددٍ أصاب نفسي، فكم هو مؤلمٌ أن تبیت سراباً، وكم هو موجعٌ أن يدرك السراب أنه.. سراب!

وقفت هناك وحدي زمناً يقرب الأعوام المائة.. قبل أن يهبط عليّ طيفٌ من السماء، تماماً من حيث أشرقَت تلك الشمس التي لا لون لها ولا حرارة! ولشدة ما غمرتني بالدفء حتى ظننتُ لوهلةً أنني على قيد الحياة بلحظةٍ هبَّ بها نسيمٌ يصبُّ في قلبي صباً. كم هو مؤلمٌ أن تُنزع الروح من الجسد بينما لا يزال قلبك نابضاً على قيدها! خواءٌ برع في احتواء كل شيء.. ملأني طعمُ النهايات الحزينة لحظةً أن طردتُ من الجنة، تماماً كما طردتُ جدتي منذ آلاف السنين. هبطتُ إلى أرضٍ قاحلةٍ ولكن من دونك يا آدم! رغم أنني لم أطمع من الشجرة المحرمة! لم أذق سوى فاكهة الحرمان، لم أعش إلا على طعم الأمل! فقط.. بعض الأمل! أهمل حرَم علينا اشتهاه شجرته!؟

تلك ليست الأرض حتماً! بل إنه الجحيم المستعر، بل إنه الزمهرير وقد تسلَّت أذرعه الباردة إلى أعماق روحي تكاد تبتر أطرافها بعد أن تكثَّلت الثلوج على أطراف لساني.

ما الذي اقترفته من ذنبٍ ولم تبدأ حياتي بعد!
ما أقسى طعم العذاب في قلب رائحة النعيم، وما أقصى الحياة عن
دنياي وعن طريقي..
وما أبعدك يا عزيزي..
ما أبعدك!

(62)

عزيزي البعيد..

تحيةً طيبةً وبعد،

هل سبق لك أن شعرتَ بتلك الحمى التي تنزع عن الجسد الراحة والأمان؟ أقصد حمى الخذلان يا عزيزي.. حمى الخذلان. تلك التي تطوف بأرجاء عقلك قبل جسدك فتتركك في طورٍ سرمدٍ من هلوساتٍ هذيانية، تتخبط في سيلٍ من أسئلةٍ لجلٍ ما يرتعش قلبك لمعانها الجوفاء ورنين حروفها المرعب وكلماتها الفارغة من المعاني..

يُشَلُّ العقل عن استيعاب حروفها فيغدو يكرر تفاصيلها، ولا يزال يكررها حتى تفقد الكلمات معانيها لتتحول إلى أشباحٍ مهمة تسكن روحك وتُنزل بك من الرعب ما يُقيد نفسك عن طردها.. فلا معوذاتٍ تكفي لطرد أشباحٍ أنجمها الخذلان. حتى الزمن لا يستطيع محو آثار صدام الخذلان عن أرواحنا، وإنما يُمعن الزمن في سلب المزيد مما تبنيناه من معنى، فتستمر بنا الحياة تاركَةً ذلك الضيف الثقيل فوق أكتاف أحزاننا، يقات على أفكارنا وينعم بالاسترخاء على وسائد أماننا لا يرحل عنَّا ولا نستطيع أن نجد له من مخرجٍ عن ذواتنا!

إن ما يحيرني حقًا هو فقدان المحب للنطق المصاحب لحلول الخذلان! لماذا يقف العتاب عند حدود حلوقنا لا يجد له من مخرج، ألربما أراحنا التلفظ به أو ربما انهارت قوانا جرءًا تحررنا منه! ولكن كل مراسم العتاب تتحضر بداخلنا وكأنها تحتفي للخلود بنا، نعاتب من خذلنا بقلوبنا، بأعيننا، بدموعنا، ولكننا أبدًا لا نقوى على التلفظ بعتابنا وكأن ما يحمله العتاب من صدق المعاني لا تقوى على صياغته كل لغات اللسان..

أنعلم يا عزيزي، إن أقيح أوجه الخذلان هي إنكار المشاعر.. نعم! فعدم القدرة على استقبال المشاعر فقر، وعدم القدرة على تصديقها

غرور، وعدم الاكتراث بها جهل، والهروب منها ضعف، والاختباء منها جبنٌ خسيس، أمّا نكرانها بعد لمسها متجسدةً بكامل جلال هيئتها لهو جريمة نكراء لا تُغتفر في حق من أحبونا ثم في حق أنفسنا.. جريمةٌ تفوق القتل المسبِّق بالإصرار والمكَلل بالتمعد! جريمةٌ تُزهق الأرواح دون الجسد.. لتحول الحياة إلى سيمفونية من أنينٍ يصحبك أينما وجدت، بل أنه يغلف وجودك ذاته بطبقاتٍ من القهر الذي لا يرضخه شيء، حتى النسيان على ما يبدو يخشى الاقتراب منه خوفاً من فقدان سلطته على البشر، فأمام الخذلان يُقهر النسيان دون مجهودٍ يُذكر.

لا شيء يضاهي خذلان المحب في محبوبه.. لا شيء يضاهي إنكار الحب أو تكذيبه.. حتى الرحيل!

فلا عزاء للرحيل سوى في صدق ما حملناه من مشاعر، فإذا ما سلب من الرحيل عزاءه الوحيد بإنكاره.. فأين للمحبين في منقاهم من عزاء؟! وأين لهم من سلوانٍ سوى صدق ذكرياتِ التهمها الإنكاري في أوج مجاعته!

(63)

عزيزي البعيد..

تحيةً طيبةً وبعد،

أشعروكأنني أتلاشى رغم كل وجودي الملموس.. وكأنني سحابةٌ تخشى
المرور على الشتاء فيحيلها رزاً مبعثراً يسقي وجوه الحالمين. وكأنني زهرةً
تخشى أن تولد في قلب الخريف.. فتعبت بها أيادي المتطفلين، أو حبة
رملٍ في ساعةٍ رملية تخشى حتمية السقوط.. كلما سقطت بدأت رحلة
السقوط من جديد.

وكانني ألوانٌ قوس قزح على فقاعةٍ تخشى لحظة التلاشي، فتستحيل
إلى لا شيء، إلى لا بقايا، إلى لا ذكرى..

أو أغنيةً تخشى انتهاء اللحن عند منعطف السكوت، فتذوب على
شفاهٍ عطشى للمعاني..

أو أحجيةً تخشى أن يفكك تلامسها عقلاً مسكوناً بالأوهام، فيحيلها
أسطورةً مفككة أو قصةً مفتوحة النهاية ما قدر لها أن تكون. في سقوطي
الحر نحو ذلك التلاشي الذي يجتذبي، وقف هبوطي لحظاتٍ قبل تمام
الارتطام الذي لم يتم!

لحظاتٍ كانت بها الحقيقة متجلية كنورٍ سطع في تمام الظلام.. أو
كصوت صرخة مدوية فوق سطح القمر!

حقيقة أوقفت نواميس الكون عن مساراتها فتوقفت الأرض عن
دورانها وتوقفت الرياح عن هبوبها، وصمتت العصافير عن تغريدها،
وانحسرت الظلال عن الأشجار رهبةً وخشية.

كم نتوه في تفاصيل الحقائق فنضل، وعند لحظة التجلي.. ينبثق كل
شيء بتصريح لا يحتمل التأويل..

وتلك كانت لحظة الحقيقة حيث تلتزم كل الأشياء تمام السكوت،
فعندما تنطق الحقيقة ينصت كل شيء عدى الصمت ليستحيل الصارخ
الوحيد في قلب الخشوع!

(64)

عزيزي البعيد..

تحيةً طيبةً وبعد،

(شاحب) هكذا صرخت بوجهي مرآتي عندما سألتها عن لون روحي
فاستحالت كلون رمال صحراءٍ لم تزرها الشمس منذ آلاف السنين
وانسحبت كل الدماء نحو قلبي حتى بات العضو الحي الوحيد بجسدي!
دافئُ ماء الصنبور المناسب على كفيّ يدي، رغم تباشير الخريف
العجوز وصوت زحف وريقات الشجر الحمراء والصفراء في ساحة منزلي..
وعلى سقف غرفتي.. وعلى جدران روحي.

مظلمةٌ هي تلك الغرفة التي فتحت بابها القديم، باردٌ هو معدن
مقبض الباب، مربعٌ هو صوت مفصل الباب، خشنٌ هو ملمس جسد
الباب.. حين يفتح الباب على الظلام، ظلام فناء الدار.. وظلام فناء الروح.
جميلةٌ هي تلك الطفلة بداخلي.. أهديتها ابتسامتي الصادقة منذ
ميلادٍ مضى فابتهجت لكلماتي.. ما عدت أرى في تلك الحلكة من حولي
سوى ابتسامتها العذبة وعينيها المتعلقين بي في شغفٍ يملأه حبٌ خالصٌ
ما من مكان له بين البشر، حبٌ في صفاء حي الصادق لها.. لو تعلم
تلك الطفلة بداخلي أنها آخر أملٍ يعلقني بالحياة لتخلت عني ولأشاحت
بضفائرها الكستنائية عن أحلام يقظتي حين تأتي لتوقظني من برائن
الموت، هي لا تعلم حجم ضعفي لذلك فقط.. تبقى!

دافئُ كرسيّ القراءة في غرفتي، رغم هجراني له أنا وكتبي ودفاتري
و أقلامي وأحلامي..

مهجورٌ من كل ما يحمل روحًا أو نبضًا أو أنفاس، لكنه مغطىٌ
بالذكريات.. مدفونٌ تحت أكوامٍ مكدّسةٍ منها..

دافئ الكرسي.. وباردة أطرافي.. باردة كقلب مكعبات الثلج.

صامتة السماء، بل يبدو أنها خرساء!

انطفأت مشكاتها وغاب مصباحها.. وتوارت أنوارها الصغيرة المتألثة.
ماتت كل النجوم يوم أن اغتالها الحزن فارتدت السماء وشاحها الأسود
وتمددت في صمت.. ألتك هي السماء حقًا؟ أم أنه سقف قبري.. حقًا ما
عدت أدري!

خطوات كثيرة متراكمة خلفي.. لا تكفُّ عن إزعاجي بضجيجها
الصاخب تمزق ما في نفسي من سكون! ليته تصمت.. ليته تغادر ساحتي!
إلى أين أهرب من خطاي إذا كانت تحملني وتسبقني! كيف أغادرها دونها،
كيف أفارقها بلا رجعة! كيف السبيل وقد كُسر جناحي في آخر محاولاتي
للطيران!

كيف!!

يطاردني شبح نفسي، منذ يوم رحيلها.. لا تتركني عيناها في سلام.. ولا
تخلو أذناي من صوتها يُرتل اسمي..

هي لن تتركني أبدًا.. لن تتخلى عني، فبي تعلم جيدًا كم أحببتها..

كما تعلم جيدًا كم أني لست بمتشبثة بتلك الحياة..

(65)

عزيزي البعيد..

تحيةً طيبةً وبعد،

أخبرني يا عزيزي، أيستحق الألم أن نضيّع أعمارنا في إيجاد صياغةٍ تتلاءم ووصفه، هل يتحمل الألم أن نختلف على مفهومه بذلك القدر الذي استهلك بطليّ (تشيخوف) في العنبر رقم 6، أو أن نتقن وصفه كما تجسد بمعطف (جوجل)؟!؟

هل حقًا يحتاج الأمر لأن نجادل في وصف الألم وأن نبحث خلف حقيقته أو أن ندرس أبعاده وندون آثاره ونتنازع حول طبيعته؟ لعلك لم تدرك أن الألم الغائر في سويداء القلب ألمٌ أبكم، قد ولد من غير لسان! عقدت أحباله الصوتية جديلةً من الصمت الغليظ فأبى حتى عن الصراخ..

لم أجد يومًا هدفًا من كل تلك التحليلات الفلسفية الفارغة عن الألم! فالألم يغزونا بغتةً دون سابق إنذار! ينقضُّ علينا غارزًا مخالفه الحادة في جذور أرواحنا محاولًا اقتلاعها بكل قوته.. وذلك هو كل ما يهم بأمر الألم! أما عن طبيعته التي يتجسد بها وسبله التي يخطوها وأسبابه التي يبرر بها وجوده غير المرغوب فيه وألمته التي منحته الحق في التسلط علينا.. فلا أجد للبحث خلف كل ذلك أية قيمة أو داعٍ! فما جدوى أن نستملك أنفسنا المهترئة تحت وطأته في توصيف مفهوم لا يقابله مصادًا قويًا في اللغة! فاني لم أجد في مضاد مفهوم الألم ما يكفي لأن يعادل أثره! مفهومٌ لن يؤدي الفاضل الغزير منه سوى إلى عدمية اللامبالاة.. الكثير من اللامبالاة تامة الفراغ.. حيث يتشابه أثر كل شيء فلا يعد القلب قادرًا على تمييز أي أثر!

للألم وجهان يا عزيزي، وجهٌ جريءٌ فاجروا آخرُ خجولٌ مستتر.. ونحن نرى منه الوجهان في كل مرة ولكنها عادة الإنسان الذي يتعمد خلط المعاني وتبديل الألقمة وإنكار الحقائق.. حتى يدوق تجسد الأشياء بنفسه.. يذوقها إلى المنتهى فيدرك.. ويعي. وقد ذقتُ طعام الألم الخالص ولقد ذقتَه أنت أيضاً، وإني أظن أن أبشع ما يمكن أن يفعله فردٌ في هذه الحياة هو أن يقلل من شأن ألم فرد آخر، أو أن يتجاهله بكل بساطةٍ وعن عمد!

أما عن حجم الحروق المغلفة لكفين مغموستين في النار فلن يقوى على تقديرها ذلك الذي تسبح يداه في الماء البارد ولا حتى تلك المنقوعة بالزيت المغلي، فالأمر يشبهه أن تصف لي حجم آلام طنين الشقيقة الملائم لرأسي أنا بينما لم تعاني أنت يوماً من الصداع ظاناً بأنه لن يختلف كثيراً عن آلام جرحٍ صغير! تظنه إدراكاً بيد أنه بالكاد أذبال شفقة!

والأكثر بشاعةً هو أن يتعمد فردٌ إلام الآخر من باب الاستحقاق! أو ربما قد استثاره أن يراه أقوى من أن يظهر ما يعتره من أعراض الألم.. يتمنى لو أن يراها مرأى العين فتخمد نيران نفسه التواقة للتشفي.. ذلك يا عزيزي ما يدعونه بالانتقام، ذلك الذي تنكره أنت إنكار أب لابنٍ ولد سفاهاً! وتقسم على براءة يدك من أثاره براءة الثوب من دم بن يعقوب، وتؤكد على طهارة قلبك من نيتته طهارة العذراء في محرابها!

وإذا، فإن العلاقة بين الألم والحب علاقة سرمدية خالدة.. أوليس الألم وجهٌ من أوجه الحياة!

أعلم أنك لن تقنع بما أقول فمنطقتك لا يكتثر لأن يحمل معني ولا يهتم لوجوده، بيد أن المعنى أعمق من المنطق.. لو تدرى! فالحب بالنسبة لأصحاب منطق العقل المحض أمثالك هي قصةٌ تحتاج إلى دلائل كافيةٍ وبراهين قوية.. لن تزهد في أن تبحث عنها في كل شقٍ وفي كل بادرة.. أما أنا فإن الحب بالنسبة لي كشجرة (السيكوبا)، حدثٌ تمتد جذوره إلى الأعماق ليبقى شاهداً على مرور الزمن.. هو حالةٌ لا أنتظر لها إثباتاً ولا

أبحث لوجودها عن أدلة، فالحب في ذاته حدثٌ متفردٌ مستقلٌ.. لا يُقارن بشيء فيُقاس به! بل أنه أكثر تجذراً من أن تُقتلع جذوره ليعاد زراعتها في مكانٍ آخر ولو بعد حين.. فذلك هو الفرق بين التصديق والإيمان، أن تصدق في الحب وأن تؤمن به! هكذا تجسدت ثنائية الحب والموت لدي أورفيوس ويوريديس! أتعلمُ لماذا فقد أورفيوس حبيبته بعد أن عادت إليه من الموت؟! لأنه لم يكتفِ بعودتها إليه رغم حجم اشتياقه لها وويلات عذابه بموتها! بل أنه أصر على البحث عن دليل كي يصدِّق عودتها! رغم إدراكه وتمام يقينه بأن في قلب ذلك الدليل يكمن فناء حبيبته الأبدي..

ذلك لأنه لم يؤمن يا عزيزي..

لم يؤمن.

(66)

عزيزي البعيد..

تحيةً طيبةً وبعد،

تلك الأرواح المحيطة بي من كل صوبٍ تهكني.. تعذبني! أجدني وقد
غصت بأغوارها من دون حولٍ لي أو قوة! أنفذ للبعض من خلال عينيه
وللبعض من خلال كفوف يديه وللبعض من صمتٍ أطبقت عليه شفتاه
وللبعض من انحناءٍ احتوى كتفيه!

فأبصر ما قد حجبته الجسد وكفَّ عن ذكره اللسان وأسمع أنيئاً دائماً
ما كنت أسمعه يأتي من مكانٍ ما خلف صدورهم رغم حجم ابتساماتهم!
أعرف الكثير من الخبايا وأطلع على الكثير من الأسرار ولكن يأبى
لساني والبوح، فلا أستطيع النطق بأيٍ مما رأيت ولا حتى لذاتي..
وكأنني اطلعتُ على إحدى أسرار الوجود! وما إن أرحل عائدةً إلى
نفسي حتى أنسى كل ما رأيت وكل ما سمعت، فلا يبقى معي سوى طعمٍ
أستشعره بروحي هو طعم الحقيقة..

أشعر بطعم المشاعر في صيغتها المركزة، فيثقل كاهلي كل شيء رأيت
وتتغلغل في دواخلي كل المشاعر التي اندفعت تتكالب عليّ لحظة نفوذي
إليها، ورغم أنني أنسى كل شيء إلا أن كل شيء يبقى.. يبقى وكأنني ملاذه
الوحيد، كل المشاعر المتضاربة تلوذ بي فأسير محمّلةً بأثقالٍ تخطلت عليّ
فلا أستطيع أن أذكر إلى أي أرضٍ تنتهي! كثيراً ما يؤلمني كل ذلك التخبط..
ليتني أستطيع أن أمتع نفسي.. ولكنه قدرتي!

لا أعرف إلى أين تصل رسائلي تلك بعد أن أضعها على جناح خيالي
وأطلق له العنان! ولكن لا يهم، دعني أقول ما لا أقول، دعني أفتت صخور
الصمت المتحجرة بداخلي، ربما تفتحت على جدران قلبي زهور النرجس في

ثُمَّ نُوَلِّدُ مِنْ جَدِيدٍ _____

غرورلتلتهم زهرات الياسمين تبتلعها في صمّتٍ فتخرسها للأبد!
دعني أهذي.. فكيف لقلبٍ نازفٍ أن يدّعي السعادة.. وكيف لقلبٍ
نابضٍ أن يهجره الحنين!
كيف!

(67)

عزيزي البعيد..

تحيةً طيبةً وبعد،

شيءٌ ما بداخلي قد انتزع بغير مقدمات، تلاشى وكأنه يوماً لم يكن..
تبخر مخلقاً وراءه سيلاً من الأثار والندوب والجروح المقطبة وتلك غير
المقطبة وعلامات استفهام كثيرة لا حدود لها، وعلامات تعجب مترنحة في
دوائر الحيرة تماماً كتلك التي لم تفارقني لحظة واحدة منذ أن استوطنت
عالي..

شيئاً ما اقتلع اقتلاعاً من جوفي لا أدري ما كنهه ولا أدرك لألم انتزاعه
حدوداً يسعني الوصول إليها! شيئاً ما كان ملتقاً التفاقاً متضافراً وروحي
وكانه جزءٌ منها يدثرها، متألِّفاً معها، ذائباً في أبعادها.. ثم اندثر!

وكانني أقف بعراء صحراءٍ جرداءٍ منذ الأزل، استيقظت اليوم فقط
على سخونة رمالها ولهب شمسها واصفرارها اللامتاهي على مرمى
البصر..

بالغث في استنطاق نفسي، أخذتُ أجلدها بعنفٍ حتى استحالت
كتلةً من الألم يشوبها بعض ملامح أنثى، لكنها لم تضيف شيئاً ذا معنى!
لكم خدعتني جدتي حين أطلعتني على الحب من نافذة وهمٍ لا وجود
له بتلك الدنيا!

وهمُّ أراق فرحتي وقتل بقلبي نور الأمل، وهمُّ تسلق الأمل أسواره
لأجده بداخل وجداني دون أن أرى له واقعاً يُذكر..

وهمُّ بلغ به الضيق أن انحصر بين الظلام وظلي، فلا أجد للنور مصدراً
سوى ذلك الأمل! وهمُّ ضاق حتى جثم على صدري وأوقف قلبي عن النبض
سوى همسٍ يُداعب شرايين دمي.

ليتها ما روت لي قصص الأميرات الجميلات. ليتها لم تخبرني عن تلك
السعادة التي دُيِّلت بها دوماً النهايات، فالنهايات السعيدة في عالمي كانت
صدفةً لم تعترض من رحلي الطريق، كان الصدق فيها مرفأً هجرته أشرعة
السفن وطافت على مياهه بقايا قوارب الأمان المفتتة، حتى قارب أمانك
أنت لم يتبقَّ منه شيئاً يُذكر..

حتى الفتات.. اقتفى آثار رحيلك.

(68)

عزيزي البعيد..

تحيةً طيبةً وبعد،

أحياناً.. لا نملك حق الحديث فتغدو الكلمات رفاهةً لا نستطيع ممارستها. لا نملك حق البكاء.. فتُمتسي الدموع غُضارَةً.. نترفع عنها. لا نملك حق النوم.. فيستحيل السبات ترفاً نزه فيه..

أحياناً نشتاق عناق العتمة لنا.. نتوق لأن يخلد الكون إلى ظلامه الدامس الوفير، فالنور يصيبنا بدء الانتباه، يجبرنا على الرضوخ أمام واقع ما.. بينما تخلد أرواحنا في أحضان حلمٍ سرمدٍ... أبكم!

عندما نجد ذلك الذي يملك لغةً تشبه لغتنا فيتمكن من أن يقرأنا بسلاسة ويسر، فإننا حقاً لا نأبه لما نقول.. فكل ما ننطق به من هراء قد لا يمثل بالنسبة لنا قيمةً حقيقيةً في حينه، نجد من يقرأ خلف حروفه كلاماً بليغاً، بل ويجد له ألف معنًى وألف مقصدٍ وألف دلالة. فإذا ما ابتلعت الحياة ذلك الطيف تنحيه عن مرمى حياتنا.. تحولت كل كلمةٍ ننتطقها أو نكتبها إلى رسالة استجداءٍ أو صرخة استغاثة نتوق لأن تصل أطراف الكون قبل أن نموت، فتلك هي الحقيقة الوحيدة التي نصدِّقها دون أن تشوهها ظنوننا وأوهامنا.. حقيقة الموت! تجسد لنا تلك الوحدة المباغثة شبح الموت بكثافةٍ تدفعنا دفعاً لأن نوثق كلماتنا قبل أن نتلاشى لحظة التلاشي الأخيرة! وكأن هناك ما يجب أن يسمعه الكون بأكمله فقط لأن كياناً واحداً لم يعد له من وجودٍ ليخرجه من جيوب الصمت! ذلك هو حالنا في كامل وعينا.. وتلك هي الكلمات التي لم تُنطق.. فهي رسائلٌ أبداً لم تُخط. موتٌ كاملٌ هو الوجه الآخر المختبئ خلف حياةٍ كاملة، موتٌ كاملٌ يا عزيزي.. ولكم يزعجني أولئك الذين لا يتوقفون عن الحديث عن السعادة أو التفتيش والتنقيب عنها أينما حلت أقدامهم أو حُلقت أفكارهم.. أو

وقعت أقدارهم! لطالما رأيت السعادة للحياة وكأنها الهلوسات لأذهانٍ
تمكن منها (الزهايمر)!

إن تمام الحياة لا يتجزأ عن تمام الموت، فالحياة هي أن تولد الأشياء
جميعها في محطات أعمارنا فقط لتتلاشى وتموت في غفلةٍ خاطفةٍ إذا
كانت رحيمةً بنا، وببطءٍ شديدٍ إذا ما ابتغت تعذيبنا لقرونٍ أطول من
أعمارنا.. لتجعل من الدقائق سنوناً طويلة لا نهاية لها!

هكذا يولد الحب، فجأةً نجد نبتته وقد تفرعت بجوانب أرواحنا لا
ندري متى غرست بذرتها في قلوبنا! ثم هكذا يتبخروا أفعه وكأنه يوماً لم
يكن، بيد أن معانيه تتعاظم بداخلنا وكأنها شبحاً سكن أجسادنا.. شبحاً
لا ينتوي عنها الرحيل.

تندلع بداخلنا الحروب وتتآكل بها سنون أعمارنا في أيامٍ تشابهت
بها وجوه الألم حتى تكيفنا معه، فأصبح جزءاً لا يتجزأ من حياتنا التي
لا تكتمل بغيبابه! تتبدل العصور أمام أعيننا بينما نظل معلقين بحبلٍ
وهي بين السماء والأرض نحاول أن نجد إجابةً على أسئلةٍ امتلأنا بها منذ
لحظة الميلاد! بينما تهال الحياة على أجسادنا المعلقة بالسياط المنقوعة
بزيبٍ عتيق! ثم لا نموت حين يموت بنا كل شيء.. بل تبقى الروح متشبثةً
بجسدها الفاني لتحتسي مذاق الألم برويةٍ وببطء..

أتعلم يا عزيزي، لا يقودنا للجنون إلا تعلقنا بالعقلانية وتمسكنا
بالقيم وتقديسنا للمبادئ.. ففي ظل ذلك العالم الأرعن، يكون ذلك هو
تمام انقباض الكف على جمر النار المستعر. فذلك الكاتب الذي لا يكف
عن توصيف الموت هو في الحقيقة رجلٌ أنهكه البحث عن الخلود! وتلك
اللوحة التي تُشكّل ألوان الألم إنما هي لرسامٍ يتوق إلى التعافي.. وذلك
الشاعر الذي يكتب قصائدٍ في عشق الجحيم إنما هو إنسان يتوق إلى
النجاة.. أما أنا، فأكتب رسائلني التي زهدت أنت في قراءتها.. توقفاً لحديثٍ
ابتلعه صمتٌ طويل يتضور جوعاً.

(69)

عزيزي البعيد..

تحيةً طيبةً وبعد،

إلى أي نصفي (بين يان⁽¹⁾) قد لُذتَ بالرحيل؟ أبتلك النصف المُظلم حيث تُنير بداخلك بقعة الضوء تروم منفذًا صغيرًا لتحرره، أم في ذلك النصف المنير حيث تكمن بقعة العتمة تنتظر لحظةً مناسبةً ليعم الظلام! أم أنك ستحلّق بعيدًا خارج الحلقة المفرغة لتلك الحياة؟!

طرحت شجرة البرتقال! تلك التي زرعناها على ناصية الحلم.. أتذكرها؟ طرحت.. وتساقط كل برتقالها على رأسي بينما كنتُ أنتظر! حباتُ البرتقال لا يملأها العصير بل الحزن، الكثير من الحزن! لا يبكي البرتقال عادةً ولكنه يبكي بحرقةً تلك الليلة.. ربما ألمه ارتطامه برأسي المصحّح وربما ألمته أوجاع انفصاله عن رحم أمه الباسقة، وربما ألمه أنه لقيطٌ لا جذور لنشأته! فقد نبت من ظهر حلمٍ رحل مع الراحلين!

حَبَّاتُ البرتقال مُرّة المذاق.. بل إنها مالحة، لِمَ لَمْ تأخذ كل ذلك الحزن معك يا عزيزي؟ لملت كل الوعود مع رحيلك وتركت الملح، خلّفته وراءك ليرسب بأعماق نفسي..

في كتاب العهود.. تحترق الوعود يوم أن تُنسى.. ولكم أنك تُنسى! تذكرت وعودي لك، تذكرتها جميعًا ولم تُسعفك ذاكرتك لتتذكّر أيًا من وعودك لي..

لا بأس.. فقد وفّت حَبَّاتُ البرتقال بالوعد فلم تبرا من أحزانها، وقد
Yin Yang (1) (بين يان): فلسفة صينية كونفوشيوسية، ويمثل مفهوم بين ويانغ اتحاد مبدأين معارضين ويرمز له بالتاجيتو وهو رمز يشير إلى جميع الرسومات التي تمثل هذين المبدأين، أي النقطة التي يتم فيها اتحاد التنافر.

ثُمَّ نُوَلِّدُ مِنْ جَدِيدٍ _____

وَفَتَّ شَجَرَةَ الْبَرْتِقَالِ بِالْعَهْدِ فَلَمْ تَزْهَدْ بِخُلُودِ الْحَلْمِ الْقَدِيمِ رَغْمَ رَحِيلِهِ،
وَقَدَّ وَفَّتَ الْأَحْزَانَ بِوَعْدِهَا السَّرْمَدِيِّ.. فَلَمْ تَكْفُ حَبَاتِ الْبَرْتِقَالِ عَنِ
التساقط على رأسي.

(70)

عزيزي البعيد..

تحيةً طيبةً وبعد،

كعادتِي، أطفأتُ كل شموعي في تمام منتصف الظلام.. بعد أن أشعلتها جميعاً في تمام منتصف النور. لا أذكر إن كانت تلك الشموع مصدر نور أم نار! لا أذكر إن كنت قد أهديتني بعضاً منها أم جميعها، أم أنها كانت ملكاً لي منذ البداية، جلّ ما أذكره أنني أشعلتها ومن ثم عدتُ فأطفأتها ثم جلستُ في الظلام أبحث عن نجمٍ ضائعٍ أهدي به، نجمٌ فقد طريقه في عتمة حيرتي، ولكنني لم أجد أمامي سوى صفحة السماء تقصُّ عليّ قصصاً لم أروها يوماً! قصصاً لم تمر بخيالي من قبل فقد كتبتها أنت بحبرك السريّ وطويتها هناك في حلقة السماء!

كعادتِي.. جلستُ بمحاذاة نافذة قلبي أرقب رحيل الهموم عن كاهلي ببطنها اللعين، تلك الرحلة الموسمية حين أروم التحرر من كل منابع الألم والتخلي عن كل أجنحتي المحترقة على أمل أن ينبت غيرها من جديد..

كعادتِي.. ارتديتُ آخر ما في خزانة مشاعري من أملٍ وارتيمت بأعماق اللون الأزرق لأسبح في أعماقه دون انقطاع.. أقاوم موجات اليأس الغاضبة وكلي يقين بأنني سوف أصل قبل سقوط آخر حبة رملٍ في مُهلتِي لأحظى بمعنى الحياة..

كم هو غريب تشابه حبات الرمال جميعها وكم هو عجيب تشابه النجوم في السماء وكم هو محيرٌ تشابك حروف الألم بالأمل وكم هو مؤلمٌ تماهي كلماتك حتى ما عدتُ أميز فيها الصدق من الكذب.. وكم هو متفردٌ ذاك اللون الأزرق.. لون الروح والجسد، والحياة والموت، والسلام والشقاء، وكل الأشياء التي أحببتها وأضادها معاً وكأنه لون المطر الخالي من الحياة.. وكأنه لون وحدتي حين يزيتها رحيلي المنتظر.

(71)

عزيزي البعيد..

تحيةً طيبةً وبعد،

تلك هي المرة الثالثة التي أعود فيها للكتابة إليك بعد انقطاع أقسمتُ خلاله مرارًا على اعتزالي فعل الكتابة.. هي العادة على ما يبدو! وإلا فما جدوى الكتابة إلى من لا يقرأ، ربما لهجره القراءة أو ربما لإصابته بالعمى..
الأمريسيان!

العمى! كثيرًا ما أتساءل في نفسي، تُرى هل تتوقف تلك الأوهام عن قيادة طريقي إذا ما أصابني العمى؟

فالأعمى ولأنه لا يرى فإنه يعترف تمامًا بغياب الأشياء حال عدم وجودها! فلا تبدأ رؤيته من حيث ما يظن في وجوده وإنما تبدأ مما هو موجودٌ بالفعل وقد دله عليه صوتٌ أو ملمسٌ أو حتى التعثر بذلك الموجود، وهل هناك ما يثبت وجود الأشياء كالتعثر بها!

ذلك العمى يجبرنا على إدراك ما لا يدركه المبصرون يا عزيزي، كضجيج المعارك الطاحنة بين جذور الأشجار والوقوف على صوت المطارق التي تبني بها الطيور أعشاشها، ذلك العمى ينهنا إلى ترنيمة جدول الماء وابتهالات المطر وثوراة قرص الشمس الملتهب!

ذلك العمى هو ما يدفعنا لأن نتوقف عن الانقياد لدوامة ضجيجنا الداخلي لننصت إلى اعترافات الكون وأحاديث الطبيعة المسترسلة دون انقطاع!

نحن لا نتذوق ثمار البهجة في الوحدة! كما وأنا لا نقوى على لمس أسباب الحزن..

فما أعظم الحدث الذي يبهجنا حين يكون هناك من نخبره عنه!
وما أقربها جذور الحدث الذي يؤلمنا من متناول يدنا حين يكون هناك من
يحملة عنّا.. فتنقسم البهجة متضاعفةً بينما ينقسم الحزن في تضارُّل!
والأمر لا يتعلق بفكرة تواجد أحدهم بل بفكرة وجوده! فلا أشد من
الوحدة في قلب الزحام!

كثيرون هم من يحاولون التواجد في محيطنا يا عزيزي، يبذلون
جهداً ويعانون مشقةً لإثبات استحقاتهم بتلك المشاركة اللطيفة، بيد أني
وفي تمام ذلك اللطف البادي تتجلى مخاوفي وتتجسد رهبتي وتفر نفسي
انسحاباً!

إن من نحتاج إليه لندرك طعمًا للبهجة أو منبئًا للحزن هو من لا يبذل
جهداً ليقسم رغيفهما معنا.. فهو موجود.. لا حاجة له بالتواجد ليغترف
معنا من ذات الإناء! فلا حاجة لتواجد موجود!

دون ذلك.. لا يتبقى سوى اللامبالاة.. اللامبالاة منزوعة الروح،
اللامبالاة حيث يتشابه الوجود والعدم.

ولكم اشتقتُ لوجود صورةٍ رسمها يومًا خيالي ظنًا منه بأنها لك!

تقبُّل

وتسألني عيناك

وتسألني!

عمّا انزوى من كلماتي خلف قضبان الصمت الرتيب!

فيُحيبك لساني.. بأنها طيُّ النسيان..

وتوحي لك ابتسامتي بأنها.. نقرٌ من الخذلان..

تُسِرُّ إليك عيناي بأنها على موعدٍ مع الإفك

أو ربما الصدق.. أو أنها السلوان!

يُجربك الحاضر بأن كلماتي جزءٌ من ماضٍ قريب..

ويُهديك خيالك إلى أنها ليست سوى عابرٍ بالكاد غريب..

وينبض قلبك بأنها لا تزال..

ويجزم عقلك بأن الخلود محال..

وتُقسم ذرات التراب بحوزتها في إثر حُطى الرياح

وتُحذرك السماء عمّا يسؤك إذا بدى ما كان عنه السؤال..

فصدِّق ما شئت.. واتبع ما تشاء..

فلا الكلمات تشهد على صدقها

ولا لظنِّك صبراً على الإصغاء..

صدِّق ما شئت.. واتبع ما تشاء..

فعند النهايات كل البدايات.. سواء..

(72)

عزيزي البعيد جداً..

تحيةً طيبةً وبعد،

تُرى.. هل نحن المسؤولون عما يشعر به الآخرون من خلالنا أم أنها صورةٌ متوهمةٌ يرسمونها لنا؟ هل نُعدُّ طرفاً في رسم توقعات الآخرين منا أم تراها هي الوعود غير المُعلنة؟ هل للشفقة دورٌ في ميلاد الحب أم أن الحب هو من يولد الشفقة؟ وإلى أي حدٍ نتحمل مسؤولية اختيارنا وإلى أي حدٍ يتحملها معنا الآخرون من حولنا؟! أم هل تراه زمن وقوع الحدث هو ما يتكفل بتشكيل إجاباتٍ لكل تلك الأسئلة؟

أُسئلةٌ عديدة لا يكف عقلي عن التردد بين إجاباتها كالبندول بينما أقرأ فصول حياتي!

إن القلب من العمق ليكفي أن يحوي كل تلك المشاعر التي تبدو للوهلة الأولى مشاعرَ متضاربة بيد أن جميعها وجوهاً عدة للشعور ذاته! وإن العقل من القدرة لأن ينظم تلك المشاعر في صفوفٍ مرتّبةٍ منفصلة لئلا يخل بأيٍ منها.. ولكن هل يحمل من الحكمة ما يكفي لفعل ذلك؟! وإن النفس لتتأرجح بين هذا وذاك فتميل كل الميل حيناً وتتماسك متصلبةً حيناً آخر.. حتى نتقن تعلم الدرس فتتوقف الإجابات البنودلية عن التأرجح بنا! قليلون هم من يستطيعون تحقيق تلك المعادلة الدقيقة التي تحوي الضدين معاً، المنطق والعاطفة.. فقليلون هم من يستطيعون المُضي قدماً في الحياة مضيئين مصباحهما دون أن يعميم تداخل ضوءهما أو أن تحرقهم القوة المضاعفة للهبب اجتماعهما.. المنطق والعاطفة!

فإن ما لا ندركه أحياناً أن التخبط إذا ما وجد في ساحة قتال عاطفة ومنطق.. كان هو قائد المعركة!

(73)

عزيزي البعيد جداً..

تحيةً طيبةً وبعد،

كثيراً ما يكون الفضول أقوى من الحذر، فتقع مأساة النهايات.
أحياناً؛ نتحول إلى نملٍ دوّوب ندورباحثين عن مبتغانا دون أن نغيّر وجهتنا..
أتظننا كمثل النمل يا عزيزي؟

فنحن بنو البشر نوقن بأننا أذكاء بالقدر الكافي لأن نكون أكثر رقياً
من تلك النملات الحائرات لمجرد أنه قد قُدّر ألا يكون هناك ما هو أكثر رقياً
منّا.. أو هكذا نظن!

نستمر كأسراب النمل التي لا يُعيقها شيئاً عن التقدم.. سوى الموت!
أتظننا نبحت عمّا لا وجود له؟! أم أنها لعنة ما نقترفه من خطايا!؟

وأيّ المفرد من تلك الخطايا! أين المهرب منها وقد أحاطت بنا من كل
حذبٍ وصوب! نصادفها في كل بادرةٍ وفي كل اتجاهٍ وفي كل مسلكٍ وفي كل
كلمة بل في كل فكرةٍ وفي كل خاطرة!

نقف بين اختياراتٍ تحاصرنا، فبِتُّ لا أعلم أينما يحيط بالآخر أهى
الخطايا ما يحيط بنا أم أننا من يطوف حولها مدعنين.. ففي غياب
الاختيارات تتلاشى كل الخطايا!

لم يتبقَّ الكثير يا عزيزي.. لم يتبقَّ الكثير على موعد النهاية.. الذي لولا
خشيتنا منها لما تشبثنا بفكرة الخلود في اللحظة، واني لأعجب من خشيتنا
ما لا نعرفه!

فقط بضع مسافاتٍ أخرى نقطعها في صمتٍ صاحِبٍ أو في مجون
السكون..

فقط بضع كلماتٍ أخرى تبوح بها ألسنتنا أو نوصد عليها بداخلنا باب الصمت الثقيل..

فقط بضع ابتساماتٍ لا معنى لها وبضع دمعاتٍ.. لا وزن لها..
بضع خطواتٍ أخرى نحو السماء.. ويبدأ الصعود.. أو يستمر الصمود.
فذلك العالم الذي نعيش به لن يأتي بجديد.. ذلك العالم لا يعرف سوى تكرار الأشياء إلى ما لا نهاية..

عالمٌ مفرغٌ من الإرادة، مئخن بالذكريات الثابتة التي لا يمل إعادة استدعائها كل حين..

أما نحن: فلسنا سوى حفنة من تلاميذٍ خائبين لا يجيدون التعلّم، لأننا لا نتقن التذكر.. فنحن أضعف من أن نبقي على ذاكرتنا.. نطرق أبواب النسيان خائفين، فراراً من دروسنا المُنهكة، ثم نعود لنكمل حياتنا في مقبرةٍ ندعوها الجسد..

لا تكترث كثيراً للنسيان يا عزيزي.. فكلما تمسكت بالنسيان ضربتْ الذكريات في أعماق قلبك جذوراً يُدميك نموها..

دع أمر النسيان لذلك الواقع الذي نعيش به أو نتعايش معه، فسيتكفل هو عنك بذلك قبل أن يُعيد عليك ذات الوجوه من جديد ساخرًا، هازئًا، بل وضاحكًا من ضعف قدرتك على التذكر!

ولكن لا تقلق.. فحينها لن تتذكركم أنك ناسٍ، فنحن لا نُتقن إحصاء شيءٍ كإحصاء الخيبات..

(74)

عزيزي البعيد جداً..

تحيةً طيبةً وبعد،

إن تقديرنا للألم.. تقديرٌ منسوبٌ للزمن بكل أشكاله، فهو منسوبٌ لعلامات التعجب العالقة في ومضات الماضي، وللفواصل المتر اقصة على ساحة الحاضر، وعلامات الاستفهام المُقبلة من عتمة المستقبل.. يظل الإنسان منخدعاً بما يسميه أماً حتى يصادف في حياته ما هو أكثر إيلاًماً فينسى ألمه الأول. هو لا يتوقع حجم ألمه المُقبل، ولا تنشغل ذاته إلا بما وقر في لحظته من وجعٍ ينخر في جذور نفسه حتى النخاع، فلا يجلب عليه سوى المزيد من الألم والتعاسة، لا تحمله قدماه إلا إلى أرض نبات الألم الخالص، ولا تنشغل أقداره إلا بأن تُثبت له مع كل خطوة يخطوها أنه لم يصادف الألم الحقيقي بعد!

عجيب هو ذلك الإنسان.. يظل ينبش في دفاتر الماضي، ويحفر في كهوف المستقبل ولا يدرك من لحظته الحالية سوى منتهى الوجع، لا يعيش تلك اللحظة لأقصاها أو يتذكر الوقوف عليها سوى حدادٍ في معاناته!

في سنوات الطفولة البيضاء منذ الميلاد وحتى مشارف الشباب؛ تتلخخ أنفسنا بأيادي أغلب من هم حولنا بكافة أشكال الكدر، أيادٍ تجوب محيطها في يأسٍ باحثٍ عن صفحةٍ بيضاءٍ تتخلص فيها مما علق بها من دَس الدنيا.. فتتلخخ أسمال نفوسنا وتبلى، ونمضي بها وقد حملت من اللطخ ما يغطي على لون فطرتها خالصة البياض.. ثم نمضي تُجرِّدنا الحياة من أسمالنا تلك حيناً، وتخصف علينا بالمزيد منها حيناً بينما نحن ذاهلين ماضين في دروبها المتشابكة حد التعقيد دون أن تروي ظمأ حيرتنا إجابةً على أشد أسئلتها صعوبة.. (لماذا)!

(لماذا).. تلك الحكمة الإلهية التي لم يستطع عقل استيعابها قبل موعد تجليها.. تلك المسببات وهأجة الوضوح التي تقود إلى نتائج غامضة الفحوى لأسبابٍ مجهولة الهوية! فكيف للحكمة أن تكون حكمةً إن كانت في تناول البُلهاء!

ولكنا نمضي لا يسعنا الوقوف، فإذا أقبلنا على الموت تشبثت بنا الحياة، وإذا ما أردنا إيقاف الزمن سخر منا الكون وتهكّم.. وإذا ما أردنا هدنةً مع القدرعلنا نصل إلى أرضيةٍ مشتركةٍ للتفاهم.. تحيّن الزمن غفلتنا وولى مناّ فرارًا.

لن يقف الزمن ليواسينا يا عزيزي.. لن يقف ليربت على أكتافنا المنهكة أو ينتظر برهةً حتى نخفف عنها أحمالها، لن يتهادى ليمسح دموعنا، لن يضحى الزمن ولن يبذل بعضًا منه في سبيلنا! سيمضي تاركًا خلفه كل من اختار أن يقف ذاهلاً ليبقى حيث هو، وحيدًا خلف الزمن.. معلقًا بلا شيء.. مترنحًا بالفراغ الموحش الذي امتلأت به النفس.. ذاك الذي نستسلم له قانعين بأنه التسليم وما هو سوى اليأس!

يمضي الزمن، من ثمّ نمضي ككل شيءٍ أمدّه الزمان والمكان بمنحةٍ الوجود.. لتستمر الحياة.

(75)

عزيزي البعيد جداً..

تحيةً طيبةً وبعد،

نحن لسنا ما ظنناه في أنفسنا حتى يستحيل واقعا ملموساً، ونحن
لسنا أعمارنا المحدودة بأحلامنا، بل إننا ما نسعى إليه من كمال حتى يصل
بنا الموت إلى لحظة اكتمال! فلكل صورة نو اقصها، ولكل لوحة ملامحها،
ولكل منظورٍ إطارٌ يليق به..

فإن رأيناه خيراً فخير وإن رأيناه شراً فشر وما بينهما هو بينٌ وبين ولكن
وعلى كل حالٍ.. تكتمل الصور.

والفراق ألوانٌ ومذاهبٌ شتى.. أقسامها فراقاً جسدياً هزم اتحاد
روحين مؤتلفتين حتى التحمتا كياناً واحداً..

لكم هو متجبر ذلك الفراق، يمزق الروح حد انتزاع القلب من وجدان
الجسد، فيدميه عذاباً تتألم على إثره روحاً ما أرادت من الدنيا غير السلام!
يتمزق أشلاءً حتى يتلاشى كل ما ظهر منه إلا من حبلٍ مقدس ربط بين
قلبين..

حبلٌ يمد الروح بأنفاس الحبيب فيحیی الآخر أملاً وقریباً.. يشدُّ على
قلب أحدهما فتدمع عين الآخر لوعةً وجزعاً..

يذكر قلب أحدهما فتترأص الابتسامة على شفتي الآخر شوقاً
وحينئاً.. يرتخي حول قلب أحدهما فيحل الحيرة في نفس الآخر تخبطاً
وتيمناً.. يدفئ قلب أحدهما فيحل الكرى في وعي الآخر راحةً واطمئناناً.

حبالاً أزلماً لم تغزله يد الموجودات وإنما غزلته المشاعر، كل أشكال
المشاعر التي تقطر صدقاً مُسكراً لشدة صدقه!

ثُمَّ نُوَلِّدُ مِنْ جَدِيدٍ _____

حَبْلًا وُلِدَ بِمِيلَادِ رُوحَيْنِ هَائِمَتَيْنِ تَوَسَّدَتَا جَسَدَيْنِ بَعِيدَيْنِ وَجَمَعَهُمَا
قَدْرٌ وَاحِدٌ..

وَاللِّقَاءُ قَدْرٌ وَالرَّحِيلُ اخْتِيَارٌ.. بَيِّدَ أَنْ لَا نَهْيَاةً لِمَا لَا بُدَايَةَ لَهُ!

(76)

عزيزي البعيد جداً..

تحيةً طيبةً وبعد،

فيم تكون صور الذاكرة الغافية في قلوبنا حين توقظها أبسط الأشياء
كلمعان النجوم وهالة القمر واهتزاز لهب الشموع وسكون الليل! فيم
تكون إذا ما تجلت حين تغمض العيون وكأنها قد أذنت لها بتمام التجلي
القيوم!

كيف لنسيم أن يحمل إلينا طيفاً من عطر أنفاسٍ هي أبعد ما تكون
عنا! فإذا ما رجواناه أن يُعيد الكزة أبي علينا وتدلل وبخل!

كيف لترياق الشعور أن يسير في عروق الجسد وخطوطه وأعصابه
الدقيقة وخلاياه المتكاثرة وكل ما تحرك به.. وكل ما سكن فيه! لا تدري له
منبعاً لتنهل منه.. ولا تصل خلفه إلى نقطة نهاية لتلوذ بها!

كيف تقف كل الخواطر عند حدود الوطن، لا تغادره فتشقى، ولا
ترتمي في أحضانه فتتلاشى كغيومٍ بددها أشعة الشمس قبل أن يتساقط
من أحشائها المطر، كندىٍ بخره دَفء حرارة الصيف قبل أن يستكين على
شفاه زهرة عطشى! كيف لمكتوبٍ منسي أن يوقظ الحنين كلما أصاب
جفنيه النعاس.. فقط لأنه يحمل بين سطوره روح من نحب! كيف لمتاهةٍ
متباعدةٍ في سماء الأحلام أن تكون أكثر أماناً من وسائدك وغطاء سريرك
الدافئ تحت سقف منزلك المتين! كيف للظلمات أن تكون ملاذك من نهارٍ
ازدحمت به كل أشكال الحياة.. ظلماتٍ فوق ظلمات، ظلمة الفقد وظلمة
الليل وظلمة الجفون المُسدلة..

كيف لابتسامةٍ بعيدة أن تطفئ ظمأ شوق العيون وكيف لذكري
طرفة عينٍ مترددةٍ خجلى أن تمنح للقلب السكون.. وكيف للملامح وجهٍ
أشاح عنا بأن يعد بكل هذا البقاء الوفير!

ثم نوّلد من جديد _____

كيف لصمتٍ طويل أن يطمئن الشوق مهدهدًا.. وكيف للبعد ألا
يكون مجحفًا.. وكيف يحيا كل من لم يذق معنى الحب الرفيع! كيف!
أندري يا عزيزي أين يكمن السلام؟ في طُهر المشاعر وصدقها، وفي
شفافية الروح حين ينجلي عنها تسلط العوز وجبروت التعلق..
يكمن في الصفح غير المشروط..
يكمن في العفو عند المقدرة..

(77)

عزيزي البعيد جداً..

تحيةً طيبةً وبعد،

ظننتُ أننا نموت بعد أن تُقتل بنا أجمل الأشياء، ولكن ذلك لا يحدث! وإنما تبقى الروح متشبثةً بجسدها الفاني تحتسي مذاق كل شيء في أعلى درجاته تركيزاً وأشد حالاته نقاءً. فإذا ما تذوقنا حقيقة الأشياء وفي مرحلةٍ ما، نتوقف عن بحثنا عمّا هو رائع، ونبدأ بالتنقيب عن كل ما هو حقيقي، فالأشياء لا تكمن حقيقتها في كونها رائعة! نتوقف في بحثنا عن الكمال عندما ينمو بداخلنا التوق إلى التكامل فالشعور بتمام الكمال ليس سوى مؤشرٍ على الخداع الصريح. في مرحلة ما نقدم الفضيلة على الراحة، نُبدّي السكون على الفوز، نوقف البحث عن المتعة، نزهد في سعينا خلف السعادة، بينما تروم أرواحنا السلام ولا شيء غير السلام.

نتوقف عن اللهاث خلف كل ما لا نطاله! لأننا وفي مرحلةٍ ما ندرك أن كل الكون يتنفس بداخلنا.. لا ينقصنا شيء لئتم بنا حلول السلام، فالسلام يا عزيزي لا يتعارض وأي عارض! لا يتعارض وأشكال الحزن ومشاعر الألم! وإنما كل السلام يكمن في تعاملنا وهذا الحزن واستقبالنا لهذا الألم..

هو في ابتسامةٍ تعرقل سبيل دموعنا المنهمرة لتعانقها في ودٍ تمنحها الأمان، وفي عطاءٍ بما ينقصنا فيعوض لنا نقصاننا، وفي حاضرٍ نتأمل تفاصيله الكثيرة فيقاوم سطوة الغد وجحود الأمس.. هو في يقينٍ راسخ بأن ما من حقيقةٍ تتغير وإن اجتمعت على قتلها كل الأكاذيب.

قد يقودنا للجنون تعلقنا بالعقلانية وتمسكنا بالقيم وتقديسنا للمبادئ في واقعٍ تجردت ساحته من كل تلك الأركان، ولكن تلك هي ضريبة الاختيار، وذلك الجنون هو الطريق الممهد إلى الحرية الممنوحة بلحظة

ثُمَّ نُوَلِّدُ مِنْ جَدِيدٍ

الميلاد.. وتلك الحرية هي سبيلنا الأمان نحو السلام.

(78)

عزيزي البعيد جدًا..

تحيةً طيبةً وبعد،

مزدحمٌ أنتَ بذكرياتٍ ماضيك البعيد.. مزدحمة أنا بكل تلك الفراغات في نفسي..

يدب الحزن في أعماقنا ديب الظلام على نهايات النهار.. وكأنه يبتلع
كياننا الدافئ فيحيلنا إلى مكعباتٍ من الثلج تشتاق حلول الانصهار، ولكننا
أبدًا لانصهر.. فللحزن جلالٌ وكبرياءٌ يليق به! يحاصرنا ذلك الظلام وكأنه
يحيط بنا من كل جانبٍ ثم نكتشف أننا نحكم إغلاق أعيننا ليتجسد لنا
بكامل هيئته! نحن من يمنح للظلام قوةً يا عزيزي فهو أضعف من أن
يتجسد في غياب رغبتنا بتجسده، فبصيص من النور كفيلاً بتبديده..
فقط بصيصٌ من نورٍ بعيد، فما بالك ونورٌ قد سكن قلوبنا وامتألت به
أرواحنا..

أقرأك يا عزيزي رغم كل ذلك السكوت المطبق حول كلماتك الكثيرة
غير المنطوقة.. أقرأك ولكنني مثلك تمامًا..

خرساء.. ولكم يتعذب الأخرس في غياب الصمم! لكم يتأذى من وضوح
الصور بقدر ما يتأذى الأعمى من غموضها..

كعادتك دائمًا يا عزيزي.. تقيس المسافات الفاصلة قبل أن تخطو
خطوةً واحدةً وكأن المسافات تُعيق الخطى.. بل وكأنها تبتلعها كرمال
الصحراء المتحركة.. لبيتك تدرك أن الخطى تطوي المسافات أيًا كان طولها
وأيًا كان اتجاهها فهي تقربك من إحدى نهايتين! وليتك تعلم أن الوقوف
على نفس المسافة يهلك كلانا معًا.

ثُمَّ نُوَلِّدُ مَنْ جَدِيدٌ _____

ليتك تتوقف عن المقارنة! فبعض الأشياء تتلاشى عند قياسها،
كالجمال يا عزيزي.. كالجمال!
كلما عزمت التحرر منك أدركتُ كم أنني حُرّة.. لا يُكبلني بك ما يُكبلني
إليك!
عندها فقط أدرك حجم السلام في روعي وقدر الحرية في نفسي.

(79)

عزيزي البعيد جداً..

تحيةً طيبةً وبعد،

قد يفاجئك مكتوبي هذا.. قد يفاجئك أن تعلم كم يؤنسني ما نتبادلته

من صمت!

فذلك الصمت هو الأرض الخصبة التي تنموها لغة الصدق، ذلك

الصمت هو ما كانت تروم إليه أرواحنا العتيقة منذ زمنٍ بعيد، ذلك هو

شوقها المتجلي منذ الأزل!

وكم سعيدةً هي أرواحنا.. حرةً تجول في ملكوتها الفسيح، تتحدث بلا

انقطاع بلا تدخل من لغةٍ محدودة المعاني ضيقة البراح عقيمة التعبير،

لغةً تخرج أرواحنا عن سكونها تسليها السلام..

لكم ضللنا أرواحنا بعباراتٍ ما كانت لتنطق على السنتها، ولكم

أرهقناها بكلماتٍ خاوية المعاني، ولكم عذبناها بسياط الخوف ومطارق

البشر، لكم أذللناها بحيل الهروب وخدع الاختباء.

ها قد تحررت تتحدث دون انقطاعٍ بنهم المحبين وسكرة الخالدين

وشفافية السابحين في ملكوت الله ما ابتغنا من الدنيا شيئاً، وما لمحهما

إنسٌ ولا استرق السمع عليهما جان..

ليتك تنصت لهمساتهم الرقيقة وضحكاتهم الطفولية البريئة.. ليتك

تملك أن ترى عيونهم المضيئة وجمالهم الأخاذ بعيداً عن معاني الألم

و أبعد ما يكون عن وجع المسافات!

لا فراق بين الأرواح يا عزيزي، لا فراق في عالم الخلود. ربما قد انهارت

بداخلنا جدران الأمان ولكن لم تنهار بنا أركانها، ربما قد انطفأت مصابيحُ

كانت تضيء لقلبينا الطريق ولكن لم تنطفى أنوارٌ تتلألأ في أرواحنا، ربما

ثُمَّ نُوَلِّدُ مِنْ جَدِيدٍ _____

افتترقت بنا السبل وتمزقت كل الأحلام، ورحل التمني مع من رحل في
استسلام.. ربما لن نلتقي.. وربما لن يعود بنا الزمان.. ولكنَّ ما زلنا هاهنا
أبعد ما نكون عن الأرض.. وما أظهره من مكان!

(80)

عزيزي البعيد جداً..

تحيةً طيبةً وبعد،

للصوت ميل في أن يجد صدئاً يتردد له فيشعره بأبعاد الوجود، تلك الكلمات التي نخطها لا قيمة لها إن لم نجد من يتقن قراءتها، فإذا ما وجدنا من يقرأها سكتاً، وإذا ما وجدنا من يفهمها سعدنا، وإذا ما وجدنا من شغف بها أحببنا ما خططناها من كلماتٍ، وازداد معها حبنا لأنفسنا..
أظن أن تلك هي العلة التي تدفعني لأن أستمري في الكتابة إليك دون وجودك.. والحديث إليك دون إنصاتك..

فما قيمة أن أتحدث إلى موجودٍ ينصت إذا كان إدراكه محدود بحجم إدراكه لذاته! وحجم إنصاته محدود بحجم ما يستهويه إدراكه ويستبقيه فضوله!

لا طائل من الحديث إلى الموجودات يا عزيزي.. فما فائدة أن يسمعك موجودٌ بينما لست له سوى صوت! مجرد ذبذبات ترتطم بطبلة أذنه.. أو كلماتٍ تطوُّها عيناه في عجل! يتناولها عقله بغروره المعتاد ليترجمها كما يحلوه تماماً كما اعتدت أن تفعل معي في زمن تجسدك البعيد!
تلك هي العلة يا عزيزي.. تكمن العلة في أننا نحب أنفسنا ورغم ذلك نسعى لأن نمنحها المزيد والمزيد من الحب!

نحب أنفسنا لدرجة أننا لا ندرك أن جميع اختياراتنا هي اختيار بين جحيمين! نحبها لدرجة أننا نبذل الحقائق ونزيف القناعات ونكذب حدسنا وأعيننا ونعدّل أبعاد ما نؤمن به من مبادئ وما يرسخ عليه يقيننا من إيمان، قبل أن نقدم على اختيار جحيمٍ جديد! جحيم نستمتع بما فيه من ألم، فقط.. لأنه من اختيارنا!

نملك من الكبرياء ما يحولُ بيننا وبين أرواحنا.. ذاك الكبرياء.. الذي إن كان رجلاً لعانقته! ربما هدأ قليلاً، ربما تخلى عن تعنته وتعالیه، ربما استسلم لما في قلبي من صدق، فحرر الطريق الواصل بيننا وبين أرواحنا المنهكة..

لا ندرك كمّ ما نحمله بداخلنا من قوة.. حتى ينبت بقلوبنا من الوجد ما يحتاج أضعافها المضاعفة فيصل بنا إلى التجبّر! نتصالح وجرائمنا حتى يموت في قلوبنا وخز الضمير، نكرر كلماتنا كالبيغاوات حتى تفقد معناها، نصمت حتى يبتلعنا النسيان، نتأرجح في دروب الحيرة حتى تلتهمنا دوائر التيه، نتألم حتى نعتاد الألم ويُقتل بنا الإحساس، نبكي حتى ينبت الصبر مكان قلوبنا.. ثم وبعد كل ذلك..

نتفتح كأزهار الربيع بعد سقوط المطر، نستقبل بهجة الكون فنبهج كل من اقترب منا!

نعم.. نولد من جديد.

(81)

عزيزي البعيد جدًا..

تحيةً طيبةً وبعد،

إن معشر البشر لا يتفقون، لا يتفقون في أدنى الأشياء وإن أبدوا خلاف ذلك. انظر إلى النجوم التي تزين السماء، نتفق جميعًا كونها نجومًا ونتفق أنها معلقة في السماء ولكننا شديدو الاختلاف في إدراك معانيها، فلبعض هي مجرد أجسادٍ تحترق ربما بفعل الحنين وربما بفعل ذنبٍ اقترفته يومًا في حق نفسها! وللبعض هي دليلٌ وإشارةٌ ربما تهديهم للنجاة وربما هي نذيرٌ لخطرٍ ما! وللبعض هي غايةٌ في ذاتها يتمنى الإمساك بها بين يديه، للبعد هي بدايةٌ وللبعض هي نورٌ ساطعٌ لم يهتموا لأن يبذلوا جهدًا كافيًا لإدراك معنَى للمعانه!

ونجمتي، روحٌ صعدت من جسدٍ احترق حتى الفناء، روحٌ لا تسكن الأرض ولا تدرك شيئًا عن قوانينها أو موازينها، روحٌ قديمة قدم الكون فقدت جسدها فهامت بها أبصار البعض وقلوبٌ قليلة وأرواحٌ عتيقة، أما ما هو دون ذلك بها فلم يلتفت إليه أحد. ماذا عن نجمتك أنت؟ تلك التي امتلأت بها روحك يوم أن كنت مدفون بكهفٍ مكفرٍ بالصحراء.. أتراها ماتت حقًا!

كم هي شديدةٌ قسوة البشر، وكم هي شديدةٌ قسوة من لم نتوقع منهم القسوة! يمدون أنفسهم بالحق في أن تتبدل نظرتهم للأشياء لمجرد أنهم يبتغون ذلك! ربما يكون للبشر الحق في تعديل آرائهم.. ولكن ذلك لن يبدل من الحقيقة مقدار ذرة خردل! إن تقلب نظرتنا للأشياء لهو خير دليل على عدم ادراكنا لها من الأساس.. أليس كذلك؟! حقيقةً لم يعد يشغلني ما تصدِّقه نفسك أو ما تصدِّقه نفوس الآخرين، فكلُّ يعيش بين قطبان ما أراد أن يُصدِّقه!

إن محاولاتنا المبدولة في سبيل الحفاظ على الكريستال الهش لن
تنفي حقيقة أنه يتهشم في لحظة!
والمشاعريا عزيزي في هشاشة الكريستال النقي، تهشم في غفلةٍ منا..
فماذا إن قذفنا بها عرض الحائط وإن كان حائطاً من وهم!
بعض الأكاذيب التي نمارسها على أنفسنا تنتشلنا من الغرق في الحزن،
بعضها يعمل كرواسي السفن تقيدها إلى بقعة ما في عرض المحيط، ولكنها
تظل مجرد أكاذيب نطعمها أنفسنا أو تلتهمنا هي في صمت.
هل أدركت يوماً قدر جمال الصحراء؟ جميلةٌ هي الصحراء! تجمع
بين كل المتناقضات وتشبه براح الروح ووحدة النفس. ففيها عيونٌ وأبار..
تشبه الأمل، وسرابٌ يشبه الوهم.. ومسافاتٌ متراميةٌ تشبه الخيال! وفي
الصحراء تلمع النجوم كما لا تلمع في أي بقعة أخرى على وجه الأرض،
الصحراء صادقة، صادقة حد الشفافية.. تصدح بها كل الأشياء، تصدق
الشمس في لهيها والنجوم في تجلّها، ويصدق فيها ميلاد الحياة.. ويصدق
فيها تجسد الموت.

(82)

عزيزي البعيد جدًا..

تحيةً طيبةً وبعد،

اكتشفتُ لَمْ نكره أنفسنا عند النهايات، فالبدايات تدور دائمةً حول الاحتفاء باكتشاف نقاط التشابه، ثم تكون المفاجئة بعد حينٍ قصيرٍ أم طال لحظة اكتشاف الاختلافات، ثم المفاجئة الكبرى لحظة الاصطدام بالتناقضات والثوابت المتباينة والمعايير المتضادة والأهداف المغايرة والمفاهيم النسبية!

نكره أنفسنا في النهايات لأنها تخدعنا، توهمنا بما ليس في الآخرين من صفات!

ترهقنا بتدخلها السافر لاستكمال الصور الناقصة وتفسير المعاني الغامضة وملء الفجوات الفارغة وتعديل زوايا استقبال كل ما هو غير مبرر..

تلغي المنطق بتقديم افتراضاتٍ يبني على أساسها تحليل العالم من حولها، فتصنع منه عالمًا خاصًا بها وحدها..

تدمرنا بتقديم فيزيٍ لانهائية له من الأعذار ليس رغبةً منها في الصفر والعفو.. بقدر رغبتها برفض الحقيقة الواضحة! فهي تكذب كل ما يخالف أهوائها! تكذب وقوع الظلم ممن تحب، وتكذب وقوع الخير ممن نكره!

تواقة هي أنفسنا للقاء من يشبهها، تواقةً لأن تجد ترددًا لأصداء صرخاتها، تنتظر مثل الخيال متجسدًا في واقعٍ ما.. فتنتظر أول صدفةٍ تجمعها ببعض الخيوط الممزقة، مجرد خيوط ممزقة تتكفل هي لتصنع منها رداءً يدهنها في الصقيع ويستر عورتها في لحظات القipzig الحارقة.

تتوق لأن تتجرد أمام مرآةٍ تكشف عدم اكتمالها واضطرابات

دواخلها وتشوهات تفاصيلها.. دون أن تجرحها بنظرة المرايا المتبجحة!
تتوق لأن يراها أحدهم على حقيقة حقيقتها، تلك المجردة حتى عن
ذاتها.. كواحة منسية بقلب الصحراء تتوق لمن لا يكتفي بارتشاف مائها
بل باستكشاف ما غرق بها واستقر في أعماقها.. من غثٍ وثمين! فوجودك
لا يرتبط بوعيك أنت وإنما يرتبط بوعي إنسان آخر يهيمه أن يدركه وعيك
أنت! فماذا إن لم يع وجودنا أحد وماذا إن لم نع وجود أيٍّ من الآخرين!
أيعني ذلك انعدام وجودنا جميعاً؟ أظن ذلك يا عزيزي، فما جدوى
الوجود في غياب الوعي به! نحن لسنا بأكثر من سراپٍ لا حقيقة له في ذلك
الانعدام!

هي -أنفسنا- لا تدرك حجم الجحيم الذي ترمي به أرواحنا بما
تصنعه بنا! حين تتوهم الوصول بيد أنها لا تزال تصارع أمواج أوهاما
بقلب المحيط! هي لا تدرك أنها تسيء التصرف بل وتجرم في حقنا..
الأمر أننا نسعد بسعادتها ونبتهج لبهجتها دون أن ننتبه لخداعها
القاتل لنا!

أوهام هي كل ما نلهث خلفه في هذه الدنيا، أوهامٌ هي ألهة أنفسنا..
أوهامٌ.. مجرد أوهام.

(83)

عزيزي البعيد جدًا..

تحيةً طيبةً وبعد،

لم يكن الأمر بتلك السهولة البادية، أن يوصل المرء أنبوب قلمه بوريد قلبه فيصب على الأوراق فيضان مشاعره صبا.. لم يكن الأمر بتلك السلاسة التي قد تتراءى لك يا عزيزي.. فأنت تكتب رسائل تعلم أنها لن تُرسل فهو أمرٌ ينطوي على الحسرة بلا أدنى شك! أما أن تُرسل رسائل تقطر بدماء روحك بينما أنت على يقين من عدم اكتراث قارئها بما انطوت عليه من أنفاسٍ حية وزفراتٍ ملتبهة.. فإنه الانتحار بعينه.. ورغم ذلك ما لبثت إلا أن فعلت!

أحياناً لا يدرك المرء سبباً واضحاً لما يُقدم عليه من أفعالٍ غير محسوبة النتائج.. ولكنني وبعد لحظات قليلة من التفكير أدركت السبب، فقد وجدت أنني وبعد طول إنهاكٍ في بحر تلاطمت به أمواج المشاعر، إذا بي أقف بكل ثباتٍ على شاطئٍ لم أكن أدرك وجوده من قبل بينما أنا غارقة في أحزاني! أقف بقوةٍ لم أكن أظنني بالغتها يوماً! ولحظة أن يدرك المرء أمان الشاطئ فإنه لا يكثرث لأهوال الغرق.. فقد أصبح في مأمنٍ من غدر تلك التقلبات التي كانت تتقاذف مشاعره لوقتٍ ليس بالقصير! لحظتها فقط يتحرر المرء من كل ما كان يرهبه من أثر أوجاعٍ تصيب قلبه..

لا يخفى عليك يا عزيزي أن لكل شيء إيقاعه الخاص، ولكم يصعب على المرء أن يحظى بمن يناسب معه على كل تلك الإيقاعات باختلاف تواترها ومسبباتها وطبيعتها، فكيف لنا أن ندرك الخطوة التالية لمن يراقصنا دون أن نستوطن خاطره! وكيف للخطوات أن تغزل إيقاعاً في ذاتها دون اتفاقٍ مُسبق، أو إشارةٍ بينية! وأنا وأنت وفي زمنٍ ما برعنا في الرقص معاً، وكان إيقاع الأشياء ينضبط على خطواتنا المتناسقة، وكأنه

يتعلم من رقصاتنا معاً كيف يكون اتقان الاسترسال وعناق التواصل..
ما رقصنا معاً على إيقاعٍ إلا وأغرقناه دهشةً برشاقة خطواتنا، إن
كان إيقاع قصيدة نقرأ أبياتها ونتتبع قوافيها، أو كتاباً نُقَلِّبُ صفحاته
ونغزل من سطوره أحاديثنا الطويلة، أو لحناً نصنِّب لاسترسال نغماته،
أو لوحةً سيربالية نُبحر في تفاصيل خطوطها ونسبح في أعماق معانيها..
فالاتفاق يأخذ النفس إلى حيث تمام التوازن.. بقدر ما يرفع الشغف
أرواحنا لأبعد من حدود الوجود..

وشغفنا لم يكن في الخطوات التي خطوناها بل في انسجامها المبهر!
واتفاقنا لم يكن مع الإيقاع المنتظم وإنما هو اتفاق أقدم من الوجود
وأسبق من الميلاد، هو اتفاقٌ قديمٌ بقدرِ قِدَمِ أرواحنا وتاريخها البعيد..

فما بيننا كان أدقُّ من التقاء الأفكار وأعمق من امتداد الصدق، هو
أبعد من حدود العقل وأكبر من أن يكتفي بقلبٍ لاحتوائه..

أوتدري؛ أظننا لا نخشى النسيان إلا خوفاً من فقدان نكهة تلك
المشاعر، لا نتجرأ على تجاوز وخز الذكريات.. ليس إخلاصاً للألم ذاته
وإنما.. إخلاصاً لما وراءه من اتفاق غير مُبرم تتشبث به فيجتزها معه
اجتراراً.. ولكني أصبحت على يقينٍ من أن صدق العاطفة يتجلى بعد زوال
الألم!

وإن لِفِضَاءِ الرُّوحِ حَرِيَّةً تَغْلِبُ مَا فِي سُبُلِ التَّعْبِيرِ وَالْبَيَانِ مِنْ أَغْلَالٍ
وَقَيْودٍ.. فما ينتابنا لهو أصدق مما نشعر به، وإنا لنشعر بأصدق مما
نُفَكِّرُ، ونفكّر بأصدق مما نكتب، ونكتب بأصدق مما نقول، ظلماتٌ فوق
ظلمات تضل بين درجاتها معاني الصدق وتتوه.. لذلك فقد كان الصمت
أصدق اللغاتِ وأبلغها، ولكم يصعب على المرء أن يتحدث لغةً لا يفقهها
أحدٌ سواه! فمن ذا الذي يستطيع أن يدرك صمتك المسكون بعاطفةٍ تلوذُ
به فرازاً من أفاعيل الكذب وحيل التشويه! لكم نحن وحيدون يا عزيزي،

لكم نحن وحيدون.. مثل كل البشر! فكلُّ متفردٌ في جمعه، وحيدٌ بما عَلِمَهُ في نفسه دونهم وبما لم يعلم!

لا أعلم لخطاك موطن قدم ولكني أعلم أن كلانا يخطو فوق ذات الأرض، ولا أعلم لظلك من غيمةٍ تبتلعه ولكني أعلم أن كلانا تحت ذات السماء، لا أعلم لليلك من ساتر ولكني أعلم أننا نناظر ذات القمر، ونبحث عن ذات النجوم، وناجي ذات الشفق ونقرأ ذات الحكايات في سحابات النهار..

أعلم أن كلانا يناظر خط التقاء السماء بالأرض على مرمى البصر، هناك في الأفق البعيد حيث حُجِبَتْ عني..

أعلم كل ذلك، تمامًا كما أعلم أنني متخمةٌ بما أبتلعه بداخلي من عتاب، عتابٌ قد يكون بحجم الكون ربما ولكنه أضعف من أن يصمد أمام صفاء القلب، وأخف من أن يستقر بأعماق الوجدان.. وأجبن من أن يجسر على الوقوف أمام تاريخٍ من الصدق.. عتابٌ كان لينحسر صاغراً ليقلص كل المسافات لحظة لقائه مُحتمل.. لولا سقوط آخر وريقات التوت يا عزيزي، لتُكشَف الحقيقة المستترة خلفها.. وتضع حدًا لجموح الخيال وأوهام التمني.

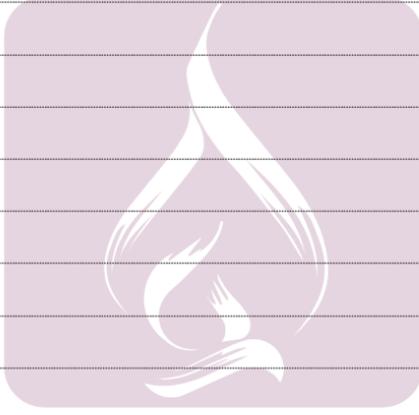
ها أنا ذا أخط إليك آخر رسائلني لتُجسد آخر صفحات فصول هذا الكتاب، فلكل كتاب قصة ولكل قصة نهاية وبعض القصص لا تتحمل وقع النهايات المفتوحة فهي قصص موصدة الأبواب بأقفالٍ لا مفاتيح لها. عزيزي البعيد جدًا،

«يحفر الصمت أخاديداً في أرواحنا، وتغيرنا المسافات، وتُرَدِّم الذكريات بفجوات الزمن، ثم لا يبقى بعد ذلك.. سوى الصدق.»

—تمت—

July 2019

كما نثق بكتابنا نثق بصوتك / هنا نصغي إليك!



الصالفة للنشر والتوزيع

AL HALA PUBLISHING & DISTRIBUTION



تواصل معنا، ونحن نسمعك!

<https://www.facebook.com/alhalapublishing>

info@alhalapublishing.com

للتواصل مع الكاتبة:



@Yassmin Elkhoul

e-mail address: yassmin.elkhoul@gmail.com